

الباب الخامس والعشرون

أوربا تفيق من رقدها

١٠٩٥ - ١٣٠٠

الفصل الأول

بيزنطية

اختتم ألكسيوس الأول كمينوس Alexius I Comnenus حكمه الطويل (١١٠٨ - ١١١٨) على أثر مؤامرة من طراز المؤامرات التي اختصت بها بيزنطية ، وذلك بعد أن قاد سفينة الإمبراطورية بنجاح في حروب الترك والنورمان ، وفي الحرب الصليبية الأولى . وكانت ابنته الكبرى أنا كمينينا Anna Comnena مضرب المثل في العلم ، كما كانت ملمة بجلالته الفلسفة ، وكانت شاعرة موهوبة ، وسياسية ذات دهاء ، ومؤرخة مهذبة تميل في كتابتها إلى الكذب والاختلاق . ولما خطبت إلى ابن الإمبراطور ميخائيل السابع حسبت أنها بحكم مولدها وبفضل جمالها ومواهبها الذهنية قد اختارتها الأقدار للترتيب على عرش الإمبراطورية ؛ ولم تكن تغفر قط لأخيها جون John أنه ولد وارث العرش ، فدبرت مؤامرة لاغتياله ، ولكن تدبيرها افتضح وعفى عنها ، وآوت إلى أحد الأديرة ، وكتبت سيرة أبيها في قصة نثرية تدعى ألكسياد Alexiad . وأدهش جون كمينوس (١١١٨ - ١١٤٣) أوربا بالتمسك بالفضائل الشخصية ، وبكفايته الإدارية ، وبانتصاره في حروبه ضد أعدائه من الوثنيين والمسيحيين والمسلمين ، وخيل إلى الناس حيناً من الدهر أنه سيعيد الدولة إلى ما كانت عليه من مجد وسعة رقعة ، ولكن خدشا من سهم مسموم في كنانته قضى على حياته وأحلامه .

وكان ابنه مانويل الأول (Manuel I) (١١٤٣ - ١١٨٠) إله الحرب مجسماً ، وهب نفسه للحرب وتمعن بها ؛ يسير على الدوام في طليعة جنوده ؛ ويرحب بالمبارزة الفردية ، وقد انتصر في كل واقعة خاض غمارها إلا الأخيرة من هذه المواقع . وكان في ميدان القتال رواقياً في مبادئه ، أما في قصره فكان أبيقورياً ، مترفاً في طعامه ولباسه ، سعيداً في عشقه الحرام لابنة أخيه . وعادت الآداب والعلوم إلى سابق ازدهارها بفضل ترفه ومناصرتة ؛ وكانت سيدات البلاط يشجعن المؤلفين ، وقد نزلن هن أيضاً من عليا من ليقرضن الشعر ؛ وجمع زناراس Zanaaras في أيامه كتابه الضخم الذي أسماه *سومر التاريخ* . وشاد مانويل لنفسه قصرأ جديداً هو قصر البلاشترني Blachernae على شاطئ البحر عند طرف القرن الذهبي ؛ وكان أودم اللويلى Odom of Deuil يظنه « أجمل بناء في العالم » ، فقد كانت عمده وجدرانها مغطاة إلى نصفها بالذهب ، ومرصعة بالجواهر التي كانت تتلأأ حتى في ظلام الليل « (١) . لقد كانت القسطنطينية في القرن الثاني عشر صورة أخرى من النهضة الإيطالية .

وتطلبت فخامة العاصمة ، والحروب الكثيرة التي شنتها الإمبراطورية العجوز لتصد عنها الموت ، تطلبت هذه وتلك ضرائب فادحة ألقتها المترفون على المنتجين لضرورات الحياة . وكانت النتيجة إن زاد فقر الفلاحين ، واستسلموا للاسترقاق الأرضي ، وأن سكن عمال المدن اللويدويون في مساكن قدرة كثيرة الضجيج ، يتركب في ظلماتها وأفذارها ما لا يحصى من الجرائم .

وكانت حركات ثورية شبه شيوعية تضطرم نارها في قلوب صغاليك المدن (٢) ، ولكن هذه الحركات قد عفا ذكرها لكثرة ما حدث من أمثالها على مر الأيام . وكان استيلاء الصليبيين على فلسطين قد فتح ثغور الشام لتجارة اللاتين ، وخسرت القسطنطينية ثلث تجارتها البحرية التي استولت عليها المدن الناهضة في إيطاليا . وكان من أعظم الآمال التي تداعب قلوب المسيحيين والمسلمين

على السواء أن يستولوا على ما فيها من الكنوز التي أنفقت في جمعها ألف عام ؛ وحدث أن زار المدينة أحد المسلمين الصالحين في أيام مانويل الزاهرة فدعا الله أن يمن على المسلمين بفضله وكرمه فيجعل القسطنطينية عاصمة بلاد الإسلام^(٣) . وحتى البندقية نفسها ربيبة بيزنطية دعت فرسان أوروبا لأن ينضموا إليها في انتهاب ملكة البسفور .

ولم تعش المملكة اللاتينية التي أقامتها الحملة الصليبية الرابعة في القسطنطينية إلا سبعاً وخمسين سنة (١٢٠٤ - ١٢٦١) ، ذلك أن المملكة الجديدة لم تقو على البقاء إلا ريثما كانت بيزنطية المتحفزة للثأر منها تعوزها الوحدة وقوة السلاح . أما هي فلم تكن لها أصول تقوم عليها من عنصرية الشعب أو دينه أو عاداته ، وكانت تكرهها الكنيسة اليونانية التي خضعت مكرهه لرومة ، ويضعضها انقسامها إلى إمارات إقطاعية تدعى كل منها لنفسها السيادة الكاملة ، وتعوزها جميعاً التجربة التي لا غنى عنها لتنظيم اقتصادياتها الصناعية والتجارية ، وتهاجمها الجيوش البيزنطية من خارجها ، وتحرقها المؤامرات في داخلها ، ولا تستطيع أن تستمد من سكانها المعادين لها ما يحتاجه من المال للدفاع العسكري عن كيانها .

لكن الغزاة الفاتحين كان مصيرهم في بلاد اليونان خيراً من مصيرهم في القسطنطينية . ذلك أن الفرنجة ، والبنادقة ، وغيرهم من الأشراف الطليان عجلوا بتقسيم تلك البلاد التاريخية إلى أقسام إقطاعية ، وشادوا القصور الجميلة فوق التلال العالية تشرف على ما حولها من المواقع ، وشرعوا وأظهروا في حكم السكان المترخين المجددين حكماً حازماً جريئاً . وحل مطارنة الكنيسة اللاتينية محل أساقفة المذهب الأرثوذكسي الذين نفوا من البلاد ، وأنشأ الرهبان القادمون من بلاد الغرب على التلال أديرة كانت من روائع الفن ومستودعاً لكنوزه . وقام رجل فخور من الفرنجة فلقب نفسه « دوق أثينة » ، وجاء شيكسبير في غير منطق سليم وأخطأ خطأ يغتفر له ، ورجع به إلى الوراثة التي عام ، وسماه ثيسبوس ، ولكن الروح

الحربية التي أقامت هذه الممالك الصغيرة كانت هي بعينها القاضية عليها لكثرة ما نثار بينها من المنازعات والأحقاد القاتلة ؛ فقد كانت الأحزاب المتنافسة يجارب بعضها بعضاً على تلال المورة وسهول بووتيا حرباً طاحنة قضت عليها جميعاً ؛ ولما أن غزت اليونان « الشركة القطلونية Catalian Company » الكبرى المؤلفة من جماعة المغامرين القادمين من قطلونيا (١٣١١) ذبحت زهرة فرسان الفرنجة في المعركة التي دارت قرب نهر سفسوس Cephisus ، وأضحت المهوكة القوى العوبة في أيدي القراصنة الأسبان .

وبعد عامين من سقوط القسطنطينية أقام ثودوز لسكاريس Theodoae Lescaris حو ألكسيوس الثالث حكومة بيزنطية في منفاه في نيقية . ورحبت بحكمه جميع الأناضول بما فيها مدائن بورصة ، وفلدلفيا ، وأزمير ، وإفسوس الغنية ؛ وأفاءت إدارته الحازمة القديرة العادلة على هذه الأقاليم رخاء جديداً ، وبعثت في الآداب اليونانية حياة جديدة ، وأحيت في قلوب الوطنيين اليونان آمالاً جديدة . وأنشأ ألكسيوس كمينوس ابن مانويل في شرق تلك البلاد وفي طربزون بالذات مملكة بيزنطية أخرى ، ونشأت مملكة ثالثة في إبيروس برياسة ميخائيل أنجلوس ؛ وضم چون فتاتزيس John Vatatzes زوج ابنه لسكاريس وخليفته (١٢٢٢-١٢٥٤) جزءاً من إبيروس إلى مملكة نيقية ، واسترد سالونيك من الفرنجة (١٢٤٦) ، وكاد يستولى على القسطنطينية نفسها لولا أنه عاد إلى آسية الصغرى لأنه عرف أن البابا إنوسنت قد دعا المغول الزاحفين غرباً إلى الإغارة على بلاده من جهة الشرق (١٢٤٨) . ورفض المغول مشروع البابا محتجين بتلك الحججة الساخرة وهي أنهم لا يريدون أن يعملوا على « إثارة الأحقاد بين المسيحيين بعضهم وبعض »^(٤) . وكان حكم الملك چون الطويل الأمد من خير الأحكام في التاريخ وأعظمها تشريعاً لصاحبها ، فقد استطاع أن يخفف الضرائب ، ويشجع الزراعة ، وينشئ المدارس ، ودور الكتب .

والكنائس ، والأديرة ، والمستشفيات وملاجئ لكبار السن والفقراء ، على الرغم من الحروب الكثيرة النفقات التي خاض غمارها ليعيد بها وحدة الإمبراطورية البيزنطية^(٥) . وازدهرت الآداب والفنون في عهده ، وأصبحت نيقية في القرن الثالث عشر من أكثر مدن العالم ثروة وأعظمها جمالا .

وكان ابنه ثيودور لسكاريس الثاني (١٢٥٤ - ١٢٥٨) شغوفاً بالعلم معتل الجسم ، عالماً ومضطرب العقل ؛ مات بعد حكم قصير ، واغتصب العرش بعد موته ميخائيل پليولوجوس Michael Paleologus زعيم الأشراف المتدمرين (١٢٥٩ - ١٢٨٢) . وإذا جاز لنا أن نصدق المؤرخين قلنا إن ميخائيل كان متصفا بكل نقيصة - كان « أنانيا ، منافقاً . . . كذوباً بغيريته ، مغروراً ، قاسياً ، شرهاً »^(٦) . ولكنه كان واسع الحيلة شديد الدهاء ، دبلوماسياً ، معهود لواء النصر ، استطاع بمعركة واحدة أن يثبت قدمه في ابروس ، كما استطاع بحلفه مع جنوى أن يفوز بمعونتها على البنادقة والفرنجة في القسطنطينية ؛ وأمر قائده استراتيجوپولس Strategopulus أن يتظاهر بالهجوم على العاصمة من ناحية الغرب . وزحف استراتيجولس على المدينة ولم يكن معه أكثر من ألف رجل ، فلما وجد حاميتها خفيفة دخلها واستولى عليها دون عناء ، وفر الملك بلدوين الثاني هو وحاشيته ، وتبعه رجال الدين اللاتين الذين كانوا في المدينة وقد استولى عليهم رعب كانوا خليقين به . وعبر ميخائيل البسفور وهو لا يكاد يصدق النبأ وتوج إمبراطوراً (١٢٦١) ، وهكذا بعث الإمبراطورية البيزنطية من رقابها ، وكان الناس يظنونها قد قضت نجها ، واستعادت الكنيسة اليونانية استقلالها ، وظلت الدولة البيزنطية الفاسدة قائمة تصرف شئونها قرنين آخرين احتفظت فيهما بالآداب القديمة ونقلتها إلى العالم الغربي ، وصدت رغم ضعفها جيوش المسلمين في تلك الفترة من الزمان .

الفصل الثاني

الأرمن (١٠٦٠ - ١٣٠٠)

وحدث حوالي عام ١٠٨٠ أن غادرت أسر أرمنية كثيرة بلادها لعدم رضائها عن سيطرة السلاجقة عليها ، وعبرت جبال طوروس ، وأنشأت مملكة أرمنية الصغرى في قليقية . وبينما كان الأتراك ، والكرد ، والمغول يحكمون أرمنية الحقيقية ، احتفظت الدولة باستقلالها مدى ثلاثة قرون ، واستطاع ليو الثاني Leo II في حكمه الذي دام أربعة وثلاثين عاما (١١٨٥ - ١٢١٩) أن يصد هجمات سلاطين حلب ودمشق ، ويستولى على إسوريا Isauria وينشئ عاصمة مملكته في سيس Sis (وهي الآن في تركيا) ، ويعقد حلفاً مع الصليبيين ، ويدخل الشرائع الأوربية في بلاده ، ويشجع الصناعة والزراعة ، ويمنح تجار البندقية وجنوى عدداً من الامتيازات ، ويقوم الملاجئ للأيتام ، والمستشفيات للمرضى ، والمدارس لطلاب العلم . واستمتع رعاياه في أيامه برخاء منقطع النظر ، وكسب بحق اسم ليو الأفخم ، وكان من أعظم ملوك العصور الوسطى حكمة وأكثرهم خيراً وصلاحاً .

ووجد صهره هثوم الأول Hethuml (١٢٢٦ - ١٢٧٠) المسيحيين غير أهل لأن يعتمد عليهم ، فتحالف مع المغول ، وسره أن يطردوا السلاجقة من أرمنية (١٢٤٠) . فلما أن اعتنق المغول الإسلام حاربوا أرمنية الصغرى ودمروها تدميراً (١٣٠٣ وما بعدها) . وفتح المالك المصريون أرمنية في عام ١٣٣٥ ، وقسمت البلاد بعد الفتح بين سادة الإقطاع . وظل الأرمن خلال هذا الاضطراب يلبون ضرورياً من المهارة الفنية في العمارة ، وحذاً عظيماً في النقش الدقيق ، يستمسون بنوع من الكشلكة المستقلة عن سائر المذاهب ، استطاعوا به أن يصدروا كل المحاولات التي بذلتها القسطنطينية أو رومة للسيطرة على بلادهم .

الفصل الثالث

روسيا والمغول (١٠٥٤ - ١٣١٥)

كانت قبائل نصف همجية تسيطر في القرن الحادى عشر على بلاد روسيا الجنوبية ، وهذه القبائل هى الكومان Cumans ، والبلغار ، والحزر Khazars ، والپلوفتسى ، والپتزيناك Patzinaks . . . أما ما بقى من روسيا الأوربية فكان مقسماً إلى أربع وستين إمارة - أهمها كيف Kiev ، وفلهينيا Volhynia ، ونفجورود ، وسزداليا Suzdalia ، واسمولنسك Smolensk ، وريازان Ryazan ، وشرنيجوف Chernigov ، وپرياسلافل Pereyaslavl . وكانت معظم هذه الإمارات تعترف بسيادة كيف عليها ؛ ولما قربت منية يارسلاف Yaroslav أمير كيف الأكبر (١٠٥٤) وزع هذه الولايات بترتيب أهميتها بين أبنائه حسب سنهم ؛ فأعطى أكبرهم إمارة كيف ، ثم وضع نظاماً دورياً فذاً يقضى بأنه إذا مات أمير ينتقل الباكون من الأمراء كل منهم إلى الولاية التى تلى ولايته فى الأهمية . وانقسمت طائفة من هذه الإمارات فى القرن الثالث عشر إلى عدد من الإقطاعيات وزعها الأمراء على أبنائهم ؛ ثم أصبحت هذه الإقطاعيات وراثية على مر الزمن ، فكانت أساساً للنظام الإقطاعى المعدل الذى تعاون فيما بعد هو وغارات المغول على إبقاء بلاد روسيا بحالها التى كانت عليها فى العصور الوسطى بعد أن خرجت أوروبا الغربية من هذه العصور . على أن بلاد روسيا كان لها فى هذه الفترة صناعات يدوية نشيطة ، وتجارة أغنى مما أصبح لها فى كثير من القرون المتأخرة .

وكانت سلطة كل أمير وراثية فى العادة ، ولكنها كانت تحددها جمعية شعبية تسمى الفيشى Veche ومجلس من أعلين البلاد يدعى بويارسكايا دوما

Boyarskaya дума . وتركت معظم الشؤون الإدارية والقانونية في أيدي رجال الدين ، وكادت معرفة القراءة والكتابة تقتصر على هؤلاء هم وعدد قليل من الأعيان ، والتجار ، والمرابين . وقد استعان هؤلاء بالنصوص أو النماذج البيزنطية ، فأنشأوا للروسيا آدابها ، وقوانينها ، ودينها ، وفنونها . وبفضل جهودهم هذبت وحددت الحقوق أو القوانين الروسية Russkaya Pravda التي وضعت أول مرة في أيام يارسلاف ، وصيغت صياغة قانونية (حول ١١٦٠) . وجعلت للكنيسة الروسية الولاية النامة على شؤون الدين ورجاله ، وشئون الزواج والأخلاق والوصايا ، وكان لها سلطان مطلق على الأرقاء وغيرهم من الموظفين الذين يعملون في أملاكها الواسعة . وارتفعت بفضل جهودها منزلة العبيد في روسيا من الوجهة القانونية إلى حد ما ، ولكن تجارة الرقيق ظلت قائمة حتى بلغت ذروتها في القرن الثاني عشر (٧) .

وشهد هذا القرن نفسه اضملال مملكة كيف وسقوطها ، فقد كان للفوضى الإقطاعية السائدة في غرب أوربا ما يماثلها من الفوضى السائدة بين القبائل والأمراء ؛ وشبت بين عامي ١٠٥٤ ، ١٢٢٤ ثلاث وثمانون حرباً أهلية في روسيا ، وأغير عليها ست وأربعون مرة ، وشنت دول روسية ست عشرة حرباً على شعوب غير روسية ، وتنازع ٢٩٣ أميراً عرش أربع وستين إمارة^(٨) . وحدثت في عام ١١١٣ اضطرابات ثورية في كيف كان سببها ما حل بالأهلين من فقر من جراء الحروب ، وارتفاع سعر الفائدة على الديون ، والاستغلال ، والتعطل . وهاجمت الجماهير الخائفة الثائرة بيوت رجال الأعمال والمرابين ونهبتهما ، واحتلت دواوين الحكومة وبسطت سيادتها عليها لحظة من الزمان . واستدعت الجمعية البلدية مونوماخ Monomakh أمير پريا سلاف ليكون أمير كيف الأعظم ؛ وجاء الأمير وهو كاره ، وقام فيها بما قام به صولون في أثينة عام ٥٩٤ ق . م ، فخفض سعر الفائدة على القروض ، وقيد بيع المدينين المفلسين أرقاء من تلقاء أنفسهم ، كما قيد سلطة أرباب الأعمال

على العمال والموظفين ؛ فاستطاع بفضل هذه الوسائل وأمثالها - التي لم يرض عنها الأغنياء ووصفوها بأنها بمثابة مصادرة لأموالهم ، وعابها الفقراء لأنها في نظرهم غير كافية - أن ينجى المدينة من الثورة ويعيد تنظيم السلام في ربوعها^(٩) . وبذل جهوداً كبيرة للقضاء على نزاع الأمراء وحروبهم ، وتوحيد بلاد روسيا من الوجهة السياسية . ولكن هذا العمل كان أكبر من أن يقوم به في حكمه الذي لم يدم أكثر من اثني عشر عاماً .

وعاد النزاع بين الأمراء وبين الطبقات بعد موته إلى ما كان عليه من قبل . وفي هذه الأثناء كانت سيطرة القبائل الأجنبية سيطرة مستمرة على المجارى الدنيا لأنهار الدنيستر ، والدنيبر ، والدن ، وكان نمو التجارة الإيطالية في القسطنطينية ، والبحر الأسود ، وموانئ الشام ، قد حوّل إلى خلعجان البحر المتوسط كثيراً من التجارة التي كانت تنتقل قبل ذلك الوقت من بلاد الإسلام وبيزنطية إلى دويلات البحر البلطي مارة بأنهار روسيا . ونقصت من جراء ذلك ثروة كيف وضعفت وسائلها المادية وروحها المعنوية ، وأخذ جيرانها الهمج منذ عام ١٠٩٦ يغيرون على ما وراءها من الأصبغ وما حولها من الضواحي ، ينهبون الأديرة ويبيعون من بأسروهم من الفلاحين بيع الرقيق . وأضحت كيف مكاناً غير أمين ، فنقص سكانها ، وأدى هذا إلى نقص الأيدي العاملة فيها . وهاجم جيش أندري بوجوليوبسكى Andrey Bogolyubski كيف في عام ١١٦٩ ، ونهبها وخرّبها تخريباً كاملاً ، واسترق آلافاً من أهلها حتى كادت « أم المدائن الروسية » يعفو ذكرها من التاريخ مدى ثلاثة قرون . وأتم هذا الخراب الذي حل بكيف استيلاء البنادقة والفرنجة على القسطنطينية في عام ١٢٠٤ ، وغارات المغول التي امتدت من عام ١٢٢٩ إلى عام ١٢٤٠ .

وانتقلت زعامة روسيا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر من « الروس الصغار » أهل أكرنيا إلى « الروس الكبار » الأكثر منهم غلظة وأقدر منهم

على تحمل المشقة ، وهم أهل الإقليم المحيط بمسكو والممتد على ضفتي الفلجا الأعلى . وكانت مسكو قد أنشئت في عام ١١٥٦ ، ولم تكن في ذلك الوقت إلا قرية صغيرة تستخدمها سوزداليا Suzdalia (التي كانت تمتد في الجهة الشمالية الشرقية من مسكو) مركزاً أمامياً على حدودها على الطريق الذي يصل مدائن فلاديمير Vladimir وسزدال Suzdal بكيف . وحارب أندري بيجوليوبسكى (١١٥٧ - ١١٧٤) ليجعل إمارة سوزداليا الجالس هو على عرشها صاحبة السيادة على روسيا بأجمعها . ولكنه اغتيل وهو يقاتل ليخضع نفجورود لسلطانه كما أخضع كيف من قبل .

وكانت مدينة نفجورود واقعة في الشمال الغربي من روسيا على ضفتي نهر فلخوف Volkhav قرب مخرج هذا النهر من بحيرة إلن Ilmen . وإذا كان نهر فلخوف يصب في بحيرة لدوجا Ladoga في الشمال ، وكانت أنهار أخرى تخرج من بحيرة إلن متجهة نحو الجنوب والغرب وإلى البحر البلطى عن طريق بحيرة لدوجا ، فإن هذه المدينة لم تكن قريبة من الحدود قرباً يهدد أمنها ، ولا هي بعيدة عنها بعداً يضر بتجارها ، ولهذا نشأت فيها تجارة داخلية وخارجية نشيطة ، وأضححت هي المركز الشرقي لتجارة مدن العصبة الهانسية . فكانت تتجر عن طريق نهر الدنيپر مع كيف وبيزنطية ، وعن طريق نهر الفلجا مع بلاد الإسلام . وكادت تحتكر تجارة الفراء الروسية لأن سلطانها كان يمتد من بسكوف Pskov في الغرب إلى المحيط الهامد الشمالى ، ويكاد يصل إلى جبال أورال في الشرق . وسيطر تجار نفجورود الأقوياء الأشراف بعد عام ١١٩٦ على الجمعية التي كانت تحكم الإمارة عن طريق أميرها المنتخب . فقد كانت هذه المدينة - الدولة جمهورية حرة تطلق على نفسها اسم « سيدى نفجورود الأكبر » . فإذا لم ينل أمير لها رضاء أهلها فإن « سكانها يقدمون له واجب الاحترام ويرشدونه إلى طريق الخروج » من المدينة ؛ فإذا قاومهم زجوه في السجن ؛ ولما أراد

اسفياتوبولك Sviatopolk أمير كيف الأكبر أن ينصب ابنه أميراً عليهم رغم أنوفهم (١٠١٥) قال له أهل نغجورود : « ابعثه إلى هنا إن كان له رأس ليس هوفى حاجة إليه »^(١٠) . ولكن الجمهورية لم تكن ديمقراطية ، لأن العمال وصغار التجار لم يكن لهم صوت فى حكومتها ، ولم يكن فى وسعهم أن يؤثروا فى سياستها إلا بالعصيان المتكرر .

وبلغت نغجورود ذروة مجدها فى عهد الأمير ألكسندر نغسكى Alexander Nevsky (١٢٣٨ - ١٢٦٣) فقد أراد البابا جريجورى التاسع أن يخرج الروسيا من المذهب المسيحى اليونانى إلى المذهب اللاتينى ، ودعا إلى حرب صليبية على نغجورود ؛ وظهر جيش سويدي على نهر النيفا ، فهزمه ألكسندر بالقرب من مدينة ليننغراد الحالية (١٢٤٠) واشتق لقبه من اسم هذا النهر . وكان نصره هذا أعظم من أن يبقية رئيساً لجمهورية ، فنفى بسببه من المدينة ، فلما أن تولى الألمان الحرب الصليبية ، واستولوا على بسكوف وتقدموا حتى أصبحوا على بعد سبعة عشر ميلا من نغجورود ، توسلت الجمعية المرتاعة إلى ألكسندر أن يعود ، فعاد ، واسترد المدينة ، وهزم فرسان ليفونيا Livonie على جليد بحيرة بيبوس Peipus (١٢٤٢) وقضى سنه الأخيرة ذليلاً مهيناً يتزعم أهل بلده تحت نير المغول .

ذلك أن المغول دخلوا الروسيا بقوات لا حصر لها . جاءوا من التركستان ، واخترقوا جبال القفقاس ، وأبادوا عندها جيشا من الكرج ، ونهبوا بلاد القرم ؛ واستنجد القومان ، الذين ظلوا عدة قرون بحاربون كيف ، بالروس وقالوا لهم : « لقد امتلكوا اليوم ديارنا ، وسيملكون دياركم غداً »^(١١) وعرف بعض الأمراء الروس صدق قولهم وقادوا عدة فرق يريدون أن ينضموا بها للدفاع عن القومان . وبعث المغول رسلا منهم يعرضون على الروس أن يحالفوهم ضد القومان ، فقتل الروس الرسل ودارت معركة على شاطئ نهر كلكا Kalka بالقرب من بحر آزاق Azov ، هزم فيها المغول جيش الروس والقومان ، وأسروا عدداً من قواد الروس

بالخيانة ، وكيلوهم بالأغلال ، وأقاموا فوقهم طواراً جلس عليه كبار رجال المغول ليطعموا ونعمة النصر ، بينا كان الأسرى الأشراف يموتون اختناقاً . (١٢٢٣) .

ثم ارتد المغول إلى منغوليا ، وصرفوا جهودهم في فتح الصين ، وعاد الأمراء الروس إلى الحرب فيما بينهم ، ولكن المغول عادوا في عام ١٢٣٧ بقيادة بانو Batu ابن أخى جنكيز خان ؛ وكانت عدتهم ٥٠٠٠٠ ر ٥٠٠٠٠ كلهم تقريباً من الفرسان ؛ وكان الطريق الذى جاءوا منه حول الطرف الشمالى من بحر الخزر ، وأعملوا السيف في رقاب البلغار الضارين على ضفتى نهر الفجا ، وخربوا مدينة بلغار Bolgar عاصمتهم . وبعث باتو برسالة إلى أمير ريزان يقول فيها : « إن كنت تبغى السلم فأعطنا عشر ما عندك » ، فرد عليه بقوله : « إن فى وسعك أن تأخذ كل ما عندنا بعد أن نموت » (١٢) ، واستنجدت ريزان بالإمارات الروسية ، فأبت أن تنجدها ؛ فقاتلت وحدها قتال الأبطال ، وخسرت جميع ما تملكه ، فقد نهب المغول الذين لا يغلبون جميع مدن ريزان ، ودكوا أبنيتها ، واجتاحوا سورذاليا ، وبددوا جيشها ، وحرقوا مسكو ، وحاصروا فلدمير ؛ وقص النبلاء شعرهم واختبأوا فى الكنائس ولبسوا مسوح الرهبان ، فلما أحرقت الكنيسة والمدينة كلها قتلوا عن آخرهم ؛ ودمرت النيزان سزوال ، ورستوف ، وعدداً كبيراً من قرى الإمارة (١٢٣٨) . وزحف المغول على تفجورود ، فلما وقفت فى سبيلهم الغابات الكثيفة ، والأنهار الغزيرة المياه ، خربوا شرنجوف Chernigov وبريسلافن ، وبلغوا فى زحفهم مدينة كييف وبعثوا برسلمهم يطلبون إلى المدينة الاستسلام ؛ ولما قتل أهل كييف الرسل ، عبر المغول نهر الدنيبر ، وتغلبوا عليها بالقوة بعد مقاومة ضعيفة ، وخربوا المدينة ، وقتلوا آلافاً مؤلفة من أهلها ؛ ولما أن رأى چيوفنى ده بيانو كرپينى هذه المدينة بعد ست سنين من ذلك الوقت ، وصفها بأنها بلدة تحتوى على مائتى كوخ ، وأن الأرض التى حولها كانت تتناثر فيها الجحائم . ولم تكن الطبقات الوسطى والعليا

تجرو في يوم من الأيام على أن تسلم الفلاحين أو العامة من سكان المدينة ،
فلما أن جاء المغول كان الأهليون ضعافاً عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم .
فأخذ الفاتحون يقتلونهم أو يسترقونهم كما يملوهم .

وتقدم المغول إلى وسط أوروبا يغلبون ويغلبون ، ثم عادوا أدرجهم
مخترقين الروسيا يعيشون فيها فساداً ، وأقاموا على أحد روافد القلجا مدينة
سراى Sarai واتخذوها عاصمة لعشائر مستقلة تعرف باسم الحشد الذهبي .
وظل باتو وخلفاؤه يسيطرون على الجزء الأكبر من الروسيا مدة مائتي عام
وأربعين عاماً من ذلك الوقت ؛ وسمح للأمراء الروس بأن يحتفظوا بأرضهم
على شرط أن يؤدوا عنها جزية سنوية لخان الحشد الذهبي ، أو للخان
الأعظم لقرقورم المغولية ، وأن يقوموا من حين إلى حين بزيارة لهذا أو ذلك
يقدمون لها فروض الولاء ، ويقطعون فيها مسافات طويلة . وكان الأمراء
يجمعون هذا الخراج ويفرضونه على الأهلين بالمساواة القاسية ، يدفع الغني
منه بقدر ما يدفع الفقير ، ومن عجز عن الدفع يبيع الرقيق . واستسلم
الأمراء وخضعوا لسيادة المغول لأنها حتمت من الثورات الاجتماعية ، وانضموا
إلى المغول في هجومهم على الشعوب الأخرى ومن بينها الإمارات الروسية
نفسها . وتزوج كثيرون من الروس مغوليات ، وربما دخلت بعض ملامح
الوجوه ، والأخلاق المغولية ، في السلالات الروسية^(١٣) . وأخذ بعض
الروس عن المغول أساليبهم في التحدث والملبس . ولما أصبحت الروسيا
تابعة لدولة أسيوية انفصلت إلى حد كبير عن الحضارة الأوربية ، وتعاون
استبداد الخان مع استبداد أباطرة بزنطية على إيجاد « حاكم جميع الروس
المطلق » في الدولة المسكوفية المتأخرة .

وعرف زعماء المغول أنهم لا يستطيعون إخضاع الروسيا بالقوة وحدها ،

فاصطلحوا مع الكنيسة الروسية ، وحموا لها ممتلكاتها ورجالها ، وأغفوا هذه الممتلكات وأولئك الرجال من الضرائب ، وجعلوا الإعدام عقاباً لمن ينتهك حرمتها . وقابلت الكنيسة هذا الجميل بمثله - أو لعلها أرغمت على رده إرغاماً - فأوصت الروس بالخضوع للسادة المغول ، ودعت الله جهرة أن يهبهم السلامة^(١٤) . وأراد آلاف من الروس أن يضمنوا لأنفسهم الأمن والسلام وسط عواصف الرعب فترهبوا ؛ وتوالت الهبات على المؤسسات الدينية ، حتى أثرت الكنيسة الروسية ثراء فاحشاً وسط الفقر السائد في جميع البلاد . ونمت في الشعوب روح الخضوع والاستسلام ، ومهدت السبيل إلى الاستبداد الذي سيطر عليها قروناً طوالاً . لكن روسيا ظلت مع ذلك هي روسيا وإن حنت رأسها لعاصفة المغول الهوجاء ، ووقفت سداً منيعاً تصد عن أوروبا سيل الغزاة الآسيويين ، فقد تحطمت قوة التيار البشرى الجارف على صخرة الأجناس الصقلبية - الروس ، والبوهيميين ، والمورافيين ؛ والبولنديين - والمجرية ؛ وقضت أوروبا الغربية فترة من الزمن ترتجف من الهول ولكنها لم تكذب بمسها أذى . ولعل بقية أوروبا استطاعت أن تسير في طريقها نحو الحرية السياسة والعقلية ، ونحو الثروة ، والنعم ، والفن ، لأن روسيا ظلت ماثي عام مغلوبة ، ذليلة ، راكدة ، فقيرة .

الفصل الرابع

بحر البلقان المضطرب

يرى الناظر إلى بلاد البلقان عن بعد أنها خليط مضطرب من العواصف السياسية والدسائس ، ومن الخداع الجذاب والمهارة التجارية ، والحروب والاختيال ، والمذابح المدمرة . أما البلغارى ، والرومانى ، والمجرى ، واليوغسلافى فيرى كل منهم أن أمته هى ثمرة ألف عام من الكفاح للظفر باستقلالها من الإمبراطوريات المحيطة بها ، والاحتفاظ بثقافة فذة باهرة ، والتعبير عن خصائصها القومية فى البناء ، واللباس ، والشعر ، والموسيقى والغناء دون أن يعوقها عن ذلك عائق .

وظلت بلغاريا ، التى كانت من قبل دولة قوية فى عهد كروم Krum وسميون Simeon ، ثمانية وستين عاما ومائة عام خاضعة لبيزنطية ، ووجد تدمير البلغار والفلاخ Vlach أهل ولاشيا Wallachia من يعبر عنه فى شخص أخوين هما يوحنا وبطرس آسن Asen كان لهما من الدهاء والشجاعة ما تتطلبه ظروف ذلك الوقت وما تحتاجه البلاد . ودعا الأخوان أهل ترنوفا Trnova إلى كنيسة القديس دمترىوس وأقنعاهم بأن هذا القديس غادر مدينة سلانيك اليونانية ليتخذ ترنوفا موطن له ، وأن فى وسع بلغاريا إذا انضمرت تحت لوائه أن تستعيد حريتها . وأفلحا فى بلوغ هدفهما ، وقسما الدولة الجديدة تقسما وديا بينهما ، فاتخذ يوحنا ترنوفا مقراً لحكمة واتخذ بطرس برسلاف Preslav . وكان أعظم ملك من نسلهما ، وفى تاريخ بلغاريا كله ، هو يوحنا آسن الثانى (١٢١٨ - ١٢٤١) ؛ ذلك أن هذا الملك لم يضم إلى ملكه تراقيا ، ومقدونية ، وإپيروس ، وألبانيا فحسب ، بل حكم هذه البلاد حكماً عادلاً أحبه من أجله رعاياه من اليونان أنفسهم . وكسب

رضاء البابوات بإظهار الولاء لهم ، وبإغداق الأموال على الأديرة ؛ وشجع التجارة ، والآداب والفنون بمناصرتها وبما سنه لها من القوانين المستنيرة ، وجعل ترنوفا من أكثر مدائن أوروبا جمالا ، ورفع منزلة بلغاريا في الثقافة والحضارة إلى مصاف معظم الأمم الراقية في تلك الأيام . لكن خلفاءه على العرش لم يرثوا منه حكمته ؛ وأشاعت غزوات المغول الاضطراب في الدولة وأضعفتها (١٢٩٢ - ١٢٩٥) ، وأدى ذلك إلى خضوعها في القرن الرابع عشر إلى الصرب أولا ثم إلى الأتراك فيما بعد .

وأفلح الزهوبان Zhupan (الزعيم) استيفن نمانيا Stephen Nemanga في عام ١١٥٩ في إخضاع العشائر والأقاليم الصربية المختلفة لحكمه ، فكان هو المؤسس الحقيقي لمملكة الصرب ، التي ظلت خاضعة لحكم أسرته مائتي عام . وكان ابنه سافا Sava يوئدى للأمة أعمال كبرى الأساقفة والحاكم السياسي في وقت واحد ، فأصبح فيما بعد أعظم قديسيها منزلة في نفوس الأهلين . وكانت البلاد لا تزال فقيرة ، حتى كانت القصور الملكية نفسها تقام من الخشب . وكانت لها فرضة بحرية مزدهرة هي مدينة راجوسا Ragusa (دبرفيك Dubrovnik الحالية) ، ولكن هذه المدينة كانت دولة مستقلة مفردة ، أصبحت في عام ١٢٢١ خاضعة لحماية البندقية . واتخذ الفن الصربي في خلال هذين القرنين طرازاً خاصاً به وبلغ درجة عظيمة من الإتقان في هذا الطراز الخاص ، نبيينهما في الصور والنقوش المرسومة على جدران كنيسة القديس پنتيليمون Panteleimon ذات الدير في نريز Nerez (حوالي عام ١١٦٤) ، فهني تكشف عن واقعية مسرحية لم نعتدها في التصوير البيزنطي ، وتسبق بقرن من الزمان بعض أساليب التصوير التي كانت في ظن الناس من ابتكار دشيو Duccio وجيتو Giotto . وتظهر في هذه الصور الجدارية وغيرها مما رسم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر صور للملوك تم عن فردية لا تضارعها فيها أية صورة بيزنطية قبل ذلك العهد (١٥)

وبما كانت بلاد الصرب في العصور الوسطى تسير نحو حضارة راقية ، حطمت الاضطهادات والمروق من الدين وحدة الأمة ، ولربما كان في وسعها لولا هذا أن تقف زحف الأتراك . كذلك أضعفت المنازعات الدينية البوسنة Bosnia بعد أن بلغت ذروة مجدها في العصور الوسطى تحت حكم البان Ban (أى الملك) كولين Kulin (١١٨٠ - ١٢٠٤) ، وما زالت كذلك حتى خضعت إلى الحجز عام ١٢٥٤ .

وعم الاضطراب هنغاريا بعد موت استيفن الأول (١٠٣٨) من جراء الفتن التي أثارها الحجز الوثنيون على الملوك الكاثوليك ، وما بذله هنرى الثالث من محاولات لضم هنغاريا إلى ألمانيا . وهزم اندرو الأول Andrew I هـ ي ، ولما جدد الإمبراطور هنرى الرابع هذه المحاولة فوّت الملك جيزا الأول Giza I عليه غرضه بأن أعطى هنغاريا إلى جريجورى السابع ، ثم استردها منه إقطاعية بابوية (١٠٧٦) . وأدى التنافس على العرش في القرن الثانى عشر إلى تقوية الإقطاع في البلاد ، فقد منح المتنافسون النبلاء إقطاعات واسعة نظير تأييدهم لهم ، حتى بلغ هؤلاء النبلاء من القوة في عام ١٢٢٢ ما مكّنهم من انتزاع « مرسوم ذهبى Golden Bull » شبيه شهاً عجبياً بالعهد الأعظم (مجنا كارتا) الذى وقعه جون ملك إنجلترا في عام ١٢١٥ . وقد أنكر هذا المرسوم وراثه الإقطاعيات ، ولكنه وعد أن يدعى مجلس كل عام ، وألا يسجن أى نبيل إلا بعد أن يحاكم أمام كونت من القصر الإمبراطورى ، وألا تفرض ضريبة ما على ضياع الأشراف أو رجال الدين . وظل هذا المرسوم الملكى المعروف باسم المرسوم الذهبى نسبة إلى غلافه أو خاتمه صك الحرية لأشراف هنغاريا ، وأضعف سلطة الملكية الهنغارية وقت أن كان المغول يستعدون لإيقاع أوروبا في أزمة من أشد الأزمات في تاريخها كله .

وفى وسعنا أن ندرك ما بلغه المغول من سعة الملك وقوة السلطان إذا ذكرنا أن أجادى Ogadi الخان الأعظم سير في عام ١٢٣٥ ثلاثة جيوش للزحف على كوريا والصين وأوربا . وعبر الجيش الثالث بقيادة باتو نهر الفلجا في عام ١٢٣٧ ، وكانت عدته ثلاثمائة ألف مقاتل . ولم يكن هذا الجيش حشداً غير نظامي ، بل كان قوة جيدة التدريب ، حسنة القيادة مجهزة بآلات قوية للحصار وبأسلحة نارية جديدة عرف المغول طريقة استعمالها من الصينيين . وخرب هؤلاء المحاربون في مدى ثلاث سنين روسيا الجنوبية كلها تقريباً . وكأنما كان باتو غير قادر على أن يفكر في الهزيمة فقسم هذا الجيش قسمين ، زحف أحدهما على بولنדה ، واستولى على كركوفيا Cracow ولبلين Lubiin وعبر نهر الأودر وهزم الألمان في ليجنتر Leignitz (١٢٤١) ؛ وتسلق الجيش الثاني بقيادة باتو نفسه جبال الكريات ، وهاجم هنغاريا ، والتقى بقوات هنغاريا والنمسا المتحدة عند موهى Mohi وأوقع بها هزيمة منكرة قدّر مؤرخو العصور الوسطى - الذين لا يراعون قط جانب الاعتدال فيما يذكرون من الأرقام - عدد القتلى من المسيحيين بمائة ألف ، وقدّر الإمبراطور فردريك الثاني خسائر الهنغارين بما « لا يكاد يقل عن جميع القوة الحربية للمملكة » (١٦) . ومن مخربات التاريخ أن الغالبيين والمغلوبين في هذه البلاد كانوا من دم واحد ، فقد كان القتلى من أشرف هنغاريا أبناء المجر المغول الذين اجتاحتوا البلاد قبل ثلاثة قرون من ذلك الوقت . واستولى باتو على بست Pesth وإلترجوم Eztergom (١٢٤١) ؛ وعبرت قوة من المغول نهر الدانوب ، وأخذت تطارد الملك الهنغارى بيلا الرابع Bela IV حتى وصلت إلى شاطئ البحر الأدريايوى ، وكانت أينما حلت تنزل الخراب والدمار . وأخذ فردريك الثاني يهيب بأوربا

أن تتحد لتستطيع الوقوف في وجه تيار الغزو الآسيوي الجارف ، ولكن نداءه كان صرخة في واد . وحاول أنوسنت الثالث أن يدعو المغول إلى المسيحية وإلى السلام ، ولكن دعوته هو الآخر ذهبت أدراج الرياح ؛ وكان الذي أنجى المسيحية وأوروبا هو موت أجادى وعودة باتو إلى قرقورم للاشتراك في انتخاب خان جديد . ولم يحدث في التاريخ كله تخريب أشمل من هذا التخريب أو أوسع فقد امتد من المحيط الهادى إلى البحرين الأدرىاوى والبلىطى .

وعاد بيلا الرابع إلى بست المخربة وعمرها بالألمان ، ونقل عاصمة ملكا إلى بودا Buda على الضفة الأخرى من الدانوب (١٢٤٧) ؛ وأعاد على مهل اقتصاديات بلاده المحطمة . وقامت طبقة جديدة من الأشراف فأعدت تنظيم المراعى والضباع الكبرى التى كان الرعاة الفلاحون الأذلاء ينتجون منها الطعام للأمة . وهبط عمال المناجم الألمان من أرزجيرج واستخرجوا المعادن الخام الغنية من ترنسلفانيا Transylvania . وكانت حياة الأهلين وعاداتهم لا تزال خشنة غليظة ، وأدوات العمل بدائية ، والبيوت أكواخاً من الأغصان والطين . وقام الرجال فى هذه البيئة التى تضطرب فيها الأجناس واللغات ، وينقسم فيها الأهلون إلى طبقات ومذاهب دينية متنازلة متعادلة ، قام الرجال فى هذه البيئة يعملون لتحصيل أرزاقهم ومكاسبهم ، ووصل أسباب الاقتصاد الذى هو منبت الحضارة .

الفصل الخامس

دول التخوم

كما أن كل نقطة في الكون اللانهائي يمكن أن تعد مركزاً له ، كذلك نرى كل أمة وكل نفس في موكب الحضارات والدول تفسر مسرحية التاريخ والحياة تفسيراً يدور حول صفاتها هي والدور الذي قامت به فيه . وكان في شمال جبال البلقان خليط . آخر من الشعوب - من البوهيميين ، والبولنديين ؛ واللتوانيين ، والليفونيين ، والفنلنديين ، كل واحد منها يجعل تاريخه القومي المحور الذي يدور حوله العالم كله مستمسكاً في ذلك بالعزة القومية التي تبث الحياة في نفوس الشعوب .

وكان الفنلنديون الذين تربطهم بالبحر والصرب صلات دم بعيدة ، يعيشون في بداية العصور الوسطى على ضفتي نهر الفلجا الأعلى والأوكا Oka . وقبل أن يستهل القرن الثامن هاجر أولئك الأقوام إلى الأراضي الجذباء المسرحية المناظر المعروفة عند غيرهم باسم فنلندة وعندهم هم باسم السومي Suomi أو أرض المناقع ، ولما أخذوا يغيرون على سواحل اسكنديناوة اضطر إريك التاسع Eric IX ملك السويد إلى فتح بلادهم في عام ١١٥٧ . وترك إريك أسقفاً عندهم في أبسالا لينشر بينهم الحضارة ، فقتل الفنلنديون الأسقف هنري ثم أخذوه بعد قتله قديسهم الشفيح ، وأخذوا في بسالة هادئة يزيلون الغابات ويحفظون المناقع ، ويصرفون مياه العشرة « الآلاف بحيرة » (١٧) ويجمعون الفراء ، ويجاهدون ضد الثلوج .

وأخذت قبائل أخرى قريبة في أصولها من الفنلنديين تعمل بالفاس والحرف جنوب خليج فنلندة ، وهي قبائل البروسيين Borussians أو Prussians ، والإست Esths (الإستونيين) ، واللف ، Livs (اللثونيين) ، واللتما Litva

(اللثوانين) واللت Letts والتثيين . فكانوا يصيدون الحيوان من الغابات ،
والسمك من مياه البحار والأنهار ، ويربون النحل ، ويفلحون الأرض ،
ويتركون وراءهم تراثا من الآداب والفنون لمن هم أقل منهم قوة من خلفائهم
الذين كانوا هم يكدهون من أجلهم . وظلت هذه القبائل كلها ما عدا
الاستونيين وثنية حتى القرن الثاني عشر حين نشر الألمان بينهم المسيحية
والحضارة بالنار والسيوف . ولما وجد اللثونيون أن الألمان يتخلون الدين
المسيحي وسيلة للتسلل إلى بلادهم والسيطرة عليهم قتلوا المبشرين ، ونزلوا
إلى نهر الدفينا Dvina ليتطهروا فيه من دنس التعمد ، وعادوا إلى آلهتهم
القدماى . ودعا إنوسنت الثالث إلى شن حرب صليبية عليهم ، ودخل
الأسقف ألبرت Albert نهر الدفينا بثلاث وعشرين سفينة حربية ، وشاد
مدينة ريجا Riga واتخذها عاصمة للبلاد وأخضع لفونيا لحكم الألمان ١٢٠١ .
وأتت طائفتان من الفرسان الدينين - العسكريين طائفتا الفرسان اللثونيين ،
والفرسان التوتون إخضاع دول البحر البلطى لألمانيا ، وامتلكوا فيها أرضين
واسعة ، ونشروا الدين المسيحي بين أهلها ، واتخذوهم رقبى أرض (١٨) .
وقويت قلوب الفرسان التوتون بهذا النجاح ، فتقدموا نحو روسيا يرجون
أن يخضعوا فى القليل ولاياتها الغربية لألمانيا وللمسيحية اللاتينية ، ولكنهم
هزموا عند بحيرة بيبوس (١٢٤٢) فى واقعة من مواقع التاريخ الحاسمة
التي لا يحصى لها عدد .

وكان بحر آخر من الصقالية يموج حول هذه الدول البلطية . وكان منهم
طائفة تسمى نفسها البولانيين أى « شعب الحقول » - وكانت تفلح أودية أنهار
الوارث Warthe والأودر Oder ، وطائفة أخرى تسمى المازور Mazurs ،
تسكن على ضفتى نهر الفستيوولا Vistula ، وطائفة ثالثة تدعى الپومرزاني
Pomerzani (أى « بجانب البحر ») هى التى اشتق منها اسم پمزانيا
Pomerania . وأراد الأمير البولندى ميسزكو الأول Mieszko 1 أن يجنب
بلادها فتح الألمان ، فوضع بولندة تحت حماية البابا پوات ، وأدارت بولندة من

ذلك الحين ظهرها نحو صقالبة الشرق نصف البيزنطيين ، وألقت بنفسها في أحضان أوروبا الغربية والمسيحية اللرومانية . وفتح بلسلاف الأول Boleslav I (٩٩٢ - ١٠٢٥) ابن ميسزكو بومرانيا ، وضم إلى بلاده برسلو Breslau وكركوفيا Cracow ونصب نفسه أول ملك على بولنـدة . وقسم بأسلاف الثالث Boleslav III (١١٠٢ - ١١٣٩) المملكة بين أبنائه الأربعة ، وضعفت الملكية بعد هذا التقسيم ، وقسم الأشراف الأرض إمارات إقطاعية ، وأخذت بولنـدة تنقلب بين الحرية تارة والخضوع لألمانيا وبوهيميا تارة أخرى . واندفع عليها تيار المغول الجارف في عام ١٢٤١ ، واستولوا على كركوفيا عاصمة البلاد ، ودكوها دكا . ولما انحسر تيار الآسيويين طغت في أثره موجة من المهاجرين الألمان على بولنـدة الغربية ، وخلقت فيها مزيجا قويا من لغة الألمان وشرائعهم ، ودمأهم ، ورحب بلسلاف الخامس في هذا الوقت عينه (١٢٤٦) باليهود الفارين من المذابح في ألمانيا ، وشجعهم على تنمية الأعمال التجارية والمالية ، واختير ونسلاس الثاني Wenceslas II ملك بوهيميا ملكا على بولنـدة في عام ١٣١٠ ، وضم الأمتين تحت تاج واحد .

واستقر الصقالبة في بوهيميا ومورافيا في القرنين الخامس والسادس ؛ وقام زعيم صقلبي يدعى سامو في عام ٦٢٣ وحرر بوهيميا من حكم الآفار وأسس فيها دولة ملكية مطلقة ماتت بموته في عام ٦٥٨ . وغزا شارلمان أرضها في عام ٨٠٥ ، وظلت بوهيميا ومورافيا جزأين من الدولة الكارولنجية زمنا لا نعرف مداه . حتى إذا كان عام ٨٩٤ أخضعت أسرة بريميزل Premysl كلا الإقليمين لسلطانها الدائم ، ولكن المجر حكموا مورافيا نصف قرن من الزمان (٩٠٧ - ٩٥٧) . وفي عام ٩٢٨ أخضع هنرى الأول بوهيميا للألمان . وعم الرخاء بوهيميا في عهد الدوق ونسلاس الأول Wenceslas I (٩٢٨ - ٩٣٥) على الرغم من خضوعها للألمان هذا الخضوع المتقطع ، وكانت أم هذا الدوق القديسة لدملا St. Ludmilla

قد ربته تربية مسيحية خالصة ، وظل بعد أن تولى الحكم مسيحياً مخلصاً
يطعم الفقراء ويكسومهم ، ويحمي الأراامل والأيتام ، ويستضيف الغرباء ،
ويحبر الأرقاء من ماله . وحاول أخوه أن يغتاله لأنه تعوزه الرذائل التي
لا بد من وجودها في الملوك ، فضربه ونسلاسه بيده وعفا عنه ، ولكن
غيره من المتآمرين اغتالوا الملك وهو في طريقه لحضور القداس في اليوم
الخامس والعشرين من شهر سبتمبر عام ٩٣٥ ؛ ولا يزال أهل بوهيميا
يحتفلون بهذا اليوم ويسمون عيد ونسلال قديس بوهيميا وحارسها .

وخلفه أدواق ذوو نزعة حربية ، وزحف بلسلاف الأول Boleslav I
(٩٣٩ - ٩٦٧) والثاني (٩٦٧ - ٩٩٩) ، وبراتسلاف الأول Bratislav I
(١٠٣٧ - ١٠٥٥) من عاصمتهم ذات الموقع الحربي المنيع وفتحوا مورافيا ،
وسيليزيا ، وبولنדה ؛ ولكن هنرى الثالث أرغم براتسلاف على الجلاء عن
بولنדה والعودة إلى أداء الجزية لألمانيا . ثم حرر أتوكار الأول Attokar I
١١٩٨ - ١٢٣٠ بوهيميا وصار أول ملوكها ، وأخضع أتوكار الثاني النمسا ،
واستيريا Styria وكارنثيا ؛ وكان أتوكار هذا شديد الرغبة في تنمية الصناعة
وإيجاد طبقة وسطى في البلاد يقاوم بها النبلاء المتمردين ، فشجع الألمان على
أن يهاجروا إلى بلاده حتى أصبح العنصر الألماني هو الكثرة الغالبة من سكان
مدن بوهيميا ومورافيا كلها تقريباً^(١٩) ، وأصبحت مناجم الفضة في
كتناهورا Kutna Hora أساس رخاء بوهيميا ومطمع غزاتها الكثيرين ،
وأعلن الألمان الحرب على أتوكار في عام ١٢٧٤ ، وأبى أشراف بلاده
أن يساعده على الغزاة ، فتحلى لهم عن فتوحه ، واحتفظ بعرشه بوصفه
أميراً إقطاعياً خاضعاً لألمانيا . ولما أن تسلخ الإمبراطور رودلف هابسبرج
Rudolf of Hapsburg في شئون بوهيميا الداخلية عبأ أتوكار جيشاً جديداً

حارب به الألمان عند درنكروت Durnkrut ؛ وتخلّى عنه النبلاء للمرة الثانية ، فألقى بنفسه في وطيس المعمعة بين صفوف الأعداء المتراصة ، ومات وهو يقاتل قتال المستينس .

وصالح ونسلاس الثاني (١٢٨٧ - ١٣٠٥) الألمان على أن يعود أميراً إقطاعياً خاضعاً لهم ، وبذل جهوداً جبارة في إعادة النظام والرخاء إلى البلاد . وانتهى بموته عهد الأسرة الريمسليه بعد أن حكمت البلاد خمسمائة عام . كان البوهيميون ، والموراقيون ، والبولنديون هم كل من بقي من المهاجرين لصقالبه الذين كانوا يملأون من قبل ألمانيا الشرقية إلى حدود نهر الإلب ، كانوا في الوقت الذي نتحدث عنه خاضعين لسلطان الألمان .

الفصل السادس

ألمانيا

كان الذين كسبوا المعركة في النزاع التاريخي القائم حول تولي غير رجال الدين المناصب الكهنوتية هم أشرف ألمانيا - الأدواق واللوردة ، والأساقفة ، وروساء الأديرة . وقد سيطر هؤلاء على الملكية الضعيفة بعد هزيمة هنرى الرابع ؛ وأقاموا في البلاد نظاماً إقطاعياً يعمل على تفكيكها وإضعاف سلطان حكومتها المركزية ، وأدى هذا النظام إلى حرمان ألمانيا في القرن الثالث عشر من زعامة أوروبا .

وخلع هنرى الخامس (١١٠٦ - ١١٢٦) أباه عن العرش ، وواصل كفاح أبيه ضد البارونات والبابوات . ولما رفض بسكال الثاني Paschael II أن يتوجه إمبراطوراً إلا إذا نزل عن حقه في تولية غير رجال الدين المناصب الكهنوتية ، زج بالبابا والكرادلة في السجن . ولما مات ألغى الأشراف نظام الملكية الوراثية ، وقضوا على الأسرة الفرنكونية Franconian ، ولولا لوثير الثالث Lothair III السكسونى ملكا على البلاد ، وبعد ثلاثة عشر عاما من ذلك الوقت أسس كنراد الثالث Conrad III أسرة هوهنستاوفن Hohenstaufen السوابية أقوى أسرة ملكية في تاريخ ألمانيا كله .

ولم يوافق اللوق هنرى البافارى على من وقع عليه اختيار الناخبين ، وأيده في هذا الرفض عمه ولف Welf أو جلف Guelf ؛ وشب للنزاع من هذا الوقت بين جلف وغبلين "Ghibelline" وهو النزاع الذى اتخذ في القرنين الثانى عشر

والثالث عشر صوراً كثيرة ، وكانت له نتائج متعددة(*) .

وحاصر جيش آل هوهنستاوفن العصاة البافاريين في بلده ويزبرج Weisberg وقلعتها . وتقول إحدى الروايات القديمة إن المدينتين المتنازعتين « هي ولف ! » و « هي وبلنج ! » سجلتا اسم الطائفتين المقتلتين ، وتقول القصص الظريفة إنه لما قبل السوابيون المنتصرون استسلام المدينة على أن يؤمن النساء وحدهن من القتل ، وأن يسمح لهن بمغادرتها ومعهن كل ما يستطعن حمله ، خرجت النساء القويات الأجسام يمشين وهن يحملن أزواجهن على ظهورهن^(٢٠) . وعقدت هدنة في عام ١١٤٢ حين خرج كذا اد للحرب الصليبية ، ولكن كتراد أخفق في غرضه وعاد يجالسه العار . وخيل إلى الناس أن بيت هوهنستاوفن قد تلطخ اسمه بالعار حين جلس على العرش أعظم رجل من رجاله .

وكان فريدريخ Friedrich (سيد السلام) أو فردريك الأول (١١٥٢ - ١١٩٠) في سن الثلاثين حين اختير ملكاً . ولم يكن رجلاً مهيب الطلعة - فقد كان قصير القامة ، أبيض البشرة ، أصفر الشعر ، ذا لحية حمراء أكسبته في إيطاليا اسم بربرسا Barbarossa ، ولكنه كان ذا عقل صاف وعزيمة ماضية ؛ قضى حياته في العمل لخير الدولة ، وأعاد ألمانيا إلى زعامة العالم المسيحي وإن كان قد منى بكثير من الهزائم . وإذا كان يجرى في عروقه دم آل هوهنستاوفن وآل ولف جميعاً ، فقد نادى بسلم في البلاد Landfried ، وصالح أعداءه ، وهدأ أصدقاءه ، وقضى بشدة على المنازعات ، والاضطرابات ، والجرائم . ويصفه معاصروه بدمائة الخلق ، وباستعداده الدائم للابتسام ابتساماً رقيقة جذابة ، وإن كان « شديد الوطأة على الأشرار » حتى كانت قسوة قوانينه الجنائية ، وهمجيتها عاملاً في تقدم الحضارة في ألمانيا . وكان الناس يشنون بحق على حياته

(*) كانت غيلين أو فيلنجن Waiblingen قرية من أملاك أسرة هوهنستاوفن . ومعنى هذا اللفظ هو « استاوفن العالية » وهو مشتق من اسم حصن جبل وقرية في سوابيا .

الخاصة لما عرف عنه من تمسكه بأهداب العفة والفضيلة ، وإن كان قد طلق زوجته الأولى لقربها إليه من ناحية العصب ، وتزوج بوريثة كونت برغنديه فقال بهذا الزواج مع عروسة مملكة .

وإذ كان يتوق لأن يتوجه البابا إمبراطوراً ، فقد وعد يوجنيوس الثالث Eugenus III أن يساعده على الرومان المتمردين ، والنورمان المشاكسين ، إذا حقق البابا رغبته ، وقدم الملك الشاب الفخور إلى نبي Nepi القرية من رومة حيث التقى بهديان الرابع البابا الجديد ، وأغفل الشعيرة المعتادة القاضية بأن يمسك الحاكم الزمى زمام جواد البابا وركابه ويساعده على النزول . وبذلك نزل هديان إلى الأرض من غير معونة ، وأبى على فردريك « قبة السلام » وتاج الإمبراطورية إلا إذا أدى فردريك هذه الشعيرة . وظل أعوان البابا والملك يومين كاملين يتناقشون في هذه المسألة ويجعلون تاج الإمبراطورية معلقاً على أداء المراسم الشكلية ، حتى خضع فردريك آخر الأمر ، فانسحب البابا وعاد إلى المدينة ممطياً صهوة جواده ، وأمسك فردريك بزمام فرس البابا وركابه ، وظل من ذلك الحين يتحدث عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، يرجو من وراء هذا أن يعترف العالم بأن الإمبراطور هو البابا النائبان عن الله في الأرض .

وجعله لقبه الإمبراطورى ملكا على لمبارديا أيضاً ؛ ولم يكن حاكم ألماني بعد هنرى الرابع يستمسك بحرفية هذا اللقب ، ولكن فردريك سرعان ما بعث إلى كل بلد من بلدان إيطاليا الشمالية حاكما يصرف أمورها باسمه . وقبلت بعض المدن أولئك السادة الأجانب ولم يقبلهم بعضها . وإذ كان فردريك يحب النظام أكثر من الحرية ، ولعله أيضاً كان يرغب في السيطرة على المنافذ الإيطالية لتجارة ألمانيا مع بلاد الشرق ، فقد خرج في عام ١١٥٨ ليخضع البلاد النائرة التي تعشق الحرية أكثر من النظام . واستدعى إلى بلاطه فى رنكاجليا Roncaglia فقهاء التمانون الذين كانوا يحيون الشريعة الرومانية فى بولونيا ؛ وسره أن يعرف

منهم أن هذه الشريعة تجعل الإمبراطور صاحب السلطة المطلقة على جميع أجزاء الإمبراطورية والمالك لكل ما فيها ، ونحوه حق تعديل الحقوق الشخصية أو إلغائها إذا رأى في تعديلها أو إلغائها مصلحة للدولة . ورفض البابا اسكندر الثالث هذه الادعاءات لخوفه منها على حقوق البابوية الزمنية ، وأيد هذا الرفض بإعلانه أن هذه الحقوق هبات من بيپين وشارلمان ؛ ولما أصر فردريك على الاستمسك بمطالبه حرمه البابا من الكنيسة (١١٦٠) ، وانتقلت وقتئذ صيحات مدينتي جلف وغبلن لتمثل أولاهما مؤيدي البابا والثانية مؤيدي الإمبراطور . وحاصر فردريك مدينة ميلان العنيدة عامين كاملين ، حتى إذا استولى عليها آخر الأمر حرقها عن آخرها (١١٦٢) . وأغضبت هذه القسوة مدائن فيرونا ، وقيسنزا ، وپدوا ، وترفيزو ، وفرارا ، ومانتوا ، وبرشيا ، وبرجامو ، وكرمونا ، وپياسنزا ، وپارما ، ومودينا ، وبولونيا ، وميلان ، فعقدت فيما بينهما حلف جامعة المدن اللباردية (١١٦٧) وهزمت جيوش تلك الجامعة جيش فردريك الألماني عند لنيانو في عام ١١٧٦ ، وأرغمته على أن يعقد هدنة تدوم ست سنين . واصطلح الإمبراطور والبابا بعد عام من ذلك الوقت ، ووقع فردريك معاهدة صلح في كنستانس (١١٨٣) أعاد بها الحكم الذاتي إلى المدن الإيطالية . وأقرت هذه المدن في نظير هذا بالسيادة الاسمية للإمبراطورية عليها ، ووافقت كرما منها وشهامة على أن تمد فردريك وحاشيته بما يلزمه من الزاد في زيارته للمبارديا .

وهكذا هزم فردريك في إيطاليا ولكنه انتصر في جميع البلاد الأخرى ، وأفلح في تثبيت دعائم السلطة الإمبراطورية على بولنדה ، وبوهيميا ، وهنغاريا . وفرض من جديد على رجال الدين الألمان ، بالفعل إن لم يكن بالقول ، جميع حقوق تولى المناصب التي كان يطالب بها هنرى الرابع ، وكسب معونة هؤلاء الرجال حتى على البابوات أنفسهم (٢١) . ونعمت ألمانيا بما ناله من مجد ، وسرها أن تستدعيه من إيطاليا ، واغتنبت بمواكب الفرسان التي كانت تسير في حفلات

تنويجه ، وزيجاته ، وأعياده . وخرج الإمبراطور الشيخ في عام ١١٨٩ على رأس مائة ألف من الرجال إلى الحرب الصليبية الثالثة ، ولعله كان يرغب في أن يولف من الشرق والغرب إمبراطورية رومانية تعود إلى رقعها القديمة ، ومات الإمبراطور غريقاً في قليقية بعد عام من ذلك الوقت .

وكان فردريك كما كان شارلمان مشعباً إلى أقصى حد بالتقاليد الرومانية ، وقد أنهك قواه بما بذله من الجهد لإحياء ماضيها الميت . وحزن أنصار الماكنية المطلقة المعجبون بها لما منى به من الهزائم ، وعدوها انتصاراً للفوضى ، أما عشاق الديمقراطية فيسرون بها ويرونها مراحل في طريق الحرية ، وإذا ما نظرنا إلى أعماله بعينه هو رأيناها على حق فيما فعل ؛ فقد كانت ألمانيا وإيطاليا تسيران مسرعين في طريق الفساد واختلال النظام ، ولم تكن سلطة غير سلطة الإمبراطورية القوية تستطيع القضاء على المنازعات والاضطرابات الإقطاعية والحروب القائمة بين المدن المختلفة ، وكان لابد أن يستتب النظام لمجهد السبيل إلى نشأة الحرية القومية . ونسجت حول فردريك الأول في عهود الضعف الألمانية المقبلة أقاصيص دالة على حب الشعب له ، وخلع على بربرسا بعد حين من الصفات ما كان القرن الثالث عشر يتصور وجوده في حفيده : فقيل إنه لم يمت بحق بل كل ما في الأمر أنه كان نائماً في جبال كيفهوزر Kyffhauser بثورنجا Thuringia ، وكان في مقدور الناس أن يروا لحيته الطويلة تنمو مخترقة ما يغطيه من الرخام ؛ وسوف يستيقظ من نومه في يوم من الأيام ، وينفض الثرى عن كتفيه ، ويعيد إلى ألمانيا النظام والقوة . ولما أنشأ بسمارك دولة ألمانيا الموحدة قال هذا الشعب القخور إنه هو بربرسا نهض ظافراً من قبره (٢٢) .

وكاد هنرى السادس (١١٩٠ - ١١٩٧) يحقق حلم أبيه ، فقد انتزع في عام ١١٩٤ جنوبي إيطاليا وصقلية من النورمان بمعونة جنوى وبيزا ، وخضعت له إيطاليا كلها عدا الولايات البابوية . وضمت بروفانس ، ودوفنيه Cauphiné ،

وبرغندية ، وألساس ، ولورين ، وسويسرا ، وهولندة ، وألمانيا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وبولندة ضمت هذه كلها إلى أملاك هنرى ، واعترفت إنجلترا بسيادته عليها ، وأدى له المسلمون الموحدون الجزية ، وطلبت أنطاكية ، وقلقية ، وقبرص أن تضم إلى الإمبراطورية ، وكان هنرى ينظر بنهم إلى فرنسا وأسبانيا ، وقد وضع الخطط للاستيلاء على بيزنطية ، وكانت الفرق الأولى من جيشه قد أبحرت إلى بلاد الشرق حين أصيب بزخار البطن وقضى نحبه في صقلية وهو في الثالثة والثلاثين من عمره .

ولم يكن هنرى قد حسب حساب مناخ هذه البلاد التي فتحها وأعد العدة لانقضاء ثأرها منه . ولم يكن له إلا ولد واحد هو طفل في الثالثة من عمره ، وأعقبته موته فترة من الفوضى دامت نحو عشر سنين أخذ المطالبون بالعرش فيها يقتلون فيما بينهم . ولما أن بلغ فردريك الثانى سن الرشد تجددت الحرب بين الإمبراطورية والبابوية ، تجددت في إيطاليا على يد ملك ألماني - نورماني أصبح لإيطاليا ، سنتحدث عنه فيما بعد حين نتكلم على إيطاليا . وأعقبته موت فردريك الثانى (١٢٥٠) نحو ثلاثين عاماً أخرى من الفوضى سميها شلر : « العهد المرعب الذى لا سادة فيه » ، باع فيه الأمراء الناجبون عرش ألمانيا لكل مستضعف يتركهم أحراراً فى أن يوظفوا أركان سلطانهم المستقل . وتكشف عهد الفوضى عن نهاية أسرة هوهنشتاوفن ، وأنشأ رودلف الهيسبرجى فى عام ١٢٧٣ أسرة جديدة واتخذ فينا عاصمة له . وأراد رودلف أن يكسب تاج الإمبراطورية ، فوقع فى عام ١٢٧٩ إعلاناً يعترف فيه بخضوع السلطة الملكية للسلطة البابوية خضوعاً تاماً ؛ ويتخلى فيه عن جميع مطالبه فى إيطاليا الجنوبية وصقلية . ولم يصبح رودلف إمبراطوراً قط ، ولكنه استطاع بشجاعته ، وإخلاصه ، ونشاطه أن يعيد النظام والرخاء إلى ألمانيا ، وأن ينشئ أسرة قوية ظلت تحكم النمسا وهنغاريا حتى عام ١٩١٨ .

وبذل هنرى السابع (١٣٠٨-١٣١٣) آخر الجهود لتوحيد ألمانيا وإيطاليا

عبر جبال الألب (١٣١٠) بمعونة ضئيلة من الأشراف الألمان وقوة صغيرة من فرسان الوالون Walloon ، ورحبت به كثير من مدن لمبارديا ، وكانت قد سبقت حرب الطبقات ونزاع المدن بعضها مع بعض ، وتناقت نفسها إلى التحرر من سلطان الكنيسة عليها . ورحب دانتى بالفزاة برسالة عن الملكية ، أعلن فيها بشجاعة تحرر السلطة الزمنية من السلطة الروحية ، وطلب فيها إلى هنرى أن يتخذ إيطاليا من سيطرة البابوية ، ولكن الجلف من أهل فلورنس أصبحت لهم الغلبة في البلاد ، وسبغت المدن المشاكسة تأييدها ، ومات هنرى ، وهو محوط بالأعداء ، بحمي الملازيا وهي الداء الذى يجزى به إيطاليا بين الفينة والفينة عاشقها المملقين .

وصدت ألمانيا في الجنوب حواجز من طبيعة الأرض ، واختلاف العنصر ، واللغة ، فوجدت لها مخرجا وتعويضاً في جهة الشرق ، فاستردت المهجرات والفتوح والاستعمار الألماني والهولندي ثلاثة أخماس ألمانيا من الصقالية ؛ وانتشر الألمان الكثيرو النسل على ضفتى الدانوب ووصلوا إلى هنغاريا ورومانيا ؛ وأقام التجار الألمان أسواقا وثغوراً في فرانكفورت على الأودر ، وفي برسلاو ، وبراج ، ودانترج وريجا ودوربات Dorpt وريفال Reval ، ومراكز تجارية في كل مكان في الرقعة الممتدة من بحر الشمال والبحر البلطى إلى جبال الألب والبحر الأسود . لقد كانت فتوحهم وحشية ، ولكن النتائج أدت إلى رقى لا يستطيع تقديره في حياة سكان الحدود الاقتصادية والثقافية .

وكان انهماك الأباطرة في هذه الفترة السالفة الذكر في شئون إيطاليا ، وحاجتهم المتكررة إلى ضمان تأييد الأشراف والفرسان ، أو مكافأتهم على هذا التأييد سببات الأرض أو السلطان ، وما طرأ على سلطة الملوك الألمان من الضعف بسبب مقاومة البابا لهم وخروج اللبارد عليهم ، كان هذا كله قد ترك الأشراف أحراراً يمتلكون الأرض في الريف ، وينزلون الفلاحين منزلة الرقيق ؛ فعلا بذلك شأن الإقطاع في القرن الثالث عشر في ألمانيا بينما كان سلطان الملوك يقضى عليه

في فرنسا : وأصبح الأساقفة الذين قربهم الأباطرة الأولون ليكونوا شوكة في ظهر الأشراف ، أصبح هؤلاء طبقة ثانية من النبلاء ، لا يقلون ثروة وقوة واستقلالاً عن الأشراف الدنيويين . ولم يحل عام ١٢٦٣ حتى عهد الإقطاعيون إلى سبعة من الأشراف - هم كبراء أساقفة مينز وترير ، وكولوني ، ودوقا سكسونيا وبافاريا ، وكونت بلاتين ومارجريف (*) برندنبرج حق اختيار الملك : وحد هؤلاء الناجبون من سلطان الحاكم ، واغتصبوا الامتيازات الملكية ، واستولوا على أراضي التاج . ولقد كان يسعهم أن يعملوا عمل الحكومة المركزية ويهيئوا للأمة وحدتها ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل كانوا فيما بين الانتخابين يسيرون كما يجلو لهم ، ولم تكن أمة ألمانية قد وجدت بعد ، وكل ما كان موجوداً هم السكسون والسواييون ، والبافاريون ، والفرنجة . . . وكذلك لم يكن هناك برلمان قومي ، بل كانت في البلاد المختلفة مجالس إقليمية تسمى لاندتاج Landtage . ولما قام مجلس ريشستاغ Reichstag أو مجلس مجموعة البلاد الألمانية في عام ١٢٤٧ ، اضمحل فيما بين عهدي الانتخاب ، ولم يعل شأنه إلا في عام ١٣٣٨ ، وكانت طائفة من الموظفين - من رقيق الأرض أو الأحرار المعينين من قبل الملوك . يوفون بـبروقراطية مفككة ويكسبون نظام الحكم نوعاً من الاستمرار غير المترابط . ولم يكن للبلاد عاصمة موحدة يتركز فيها ولاء الشعب واهتمامه ؛ ولم تكن هناك مجموعة موحدة من القوانين تحكم بها البلاد كلها ، فقد احتفظ كل إقليم بعاداته وقوانينه رغم ما بذله ببربسا من الجهد لفرض القانون الروماني على ألمانيا كلها . وحدث في عام ١٢٢٥ أن صيغت قوانين سكسونيا في كتاب واحد سمي المرأة السكسونية Sachsenspiegel ، وفي عام ١٢٧٥ صيغت قوانين سوابيا وعاداتها في « المرأة السوابية Schwabenspiegel ؛ وأيد هذان القانونان ما كان للشعب من حق

(*) مارجريف Markgrave لقب من ألقاب الأشراف في ألمانيا يعادل لقب مركز

في فرنسا (المترجم) .

قديم في اختيار ملوكه ، وما كان للفلاحين من حق الاحتفاظ بحريتهم وأرضهم ، وقالت المرأة السكسونية في هذا الصدد إن رق الأرض والاستعباد يتعارضان مع الطبيعة البشرية ومع إرادة الله ، وأن أصلهما يرجع إلى القوة أو الغش (٢٣) ، لكن رق الأرض أخذ مع ذلك ينمو ويزداد :

وكان عهد آل هونستاوفن (١١٨٣ - ١٢٥٤) أعظم العهود الألمانية قبل بسمارك . نعم إن عادات الشعب وآدابه كانت لاتزال خشنة غليظة ، وكانت قوانينه مضطربة هي والقوضى سواء ، وأخلاقه خليطاً من الأخلاق المسيحية والوثنية ، ومسيحيته نصف ستار لانتهاج الأراضي واغتصابها من أصحابها . كذلك لم تكن ثروة الشعب أو وسائل نعيمه تضارع ثروة شعب إيطاليا أو فلاندرز إذا وازنا مدينة في ألمانيا بمدينة مثلها في ذينك البلدين الأخيرين . ولكن الفلاحين الألمان كانوا مجدين كثيرى النسل ، وكان التجار الألمان مغامرين ذوى إقدام ، والأشراف أكثر سكان أوروبا ثقافة وقوة ، والملوك هم الرؤساء الزمنيين للعالم الغربي يحكمون بلاداً تمتد من نهر الرين إلى نهر الفستيو لا ، ومن نهر الرون إلى جبال البلقان ، ومن البحر البلطى إلى الدانوب ، ومن بحر الشمال إلى صقلية : ونشأت وترعرعت مائة مدينة ومدينة بفضل حياتها الاقتصادية الناشطة ، وكان لكثير منها صكوك ومواثيق تؤيد حكمها الداقي ؛ وأخذت على مر السنين تزداد ثروتها وتزدهر فنونها حتى كانت في عصر النهضة فخر ألمانيا وشاهداً على عظمتها ومجدها ، ولنا ليعترينا الآن الأسى والحزن على ما كان لها من جمال زال ولم يبق له وجود .

الفصل السابع

اسكنديناوة

عادت الدنمرقة إلى الظهور في التاريخ مرة أخرى في عهد ولدمار الأول الأول Waldemar I (١١٥٧ - ١١٨٢) بعد أن ظلت مائة عام تنعم بالاختفاء عنه ، فقد استعان هذا الملك بوزيره أبسالون Absalon كبير أساقفة لند Lund على إقامة حكومة قوية ، طهرت البحار من القراصنة . واعتنت الدنمرقة بحماية التجارة وتشجيعها ، وأسس أبسالون في عام ١١٦٧ مدينة كوبنهاجن Copenhagen أى « مرفأ السوق » - Kjoebenhaven . ورد ولدمار الثاني (١٢٠٢ - ١٢٤١) على الاعتداءات الألمانية بالاستيلاء على هولستين Holstein ، وهمبرج ، وعلى البلاد الألمانية الواقعة في الشمال الشرقي من نهر الإلب . ثم قام بثلاث حروب « صليبية » ضد صقالية البحر البطلطي « تكريماً للعدراء المباركة » واستولى على إستونيا الشمالية ، وأسس مدينة ريفال Reval . وهوجم في إحدى هذه الحروب وهو في معسكره ؛ ويقول الرواة إنه نجا من الموت بسببين أولها شجاعته وثانيهما أنه نزلت من السماء في وقت الهجوم عليه راية حمراء عليها صليب أبيض . وأصبحت هذه الراية المعروفة باسم الدنبرج Dannebrog أى القماش الدنمرقي علم القتال الدنمرقي ؛ وأمره الكونت هنرى الشويرينى Count Henry of Schwerin في عام ١٢٢٣ ، ولم يطلق سراحه بعد أن قضى في الأسر عامين ونصف عام إلا بعد أن نزل للألمان على جميع فتوحه الألمانية والصقلبية ما عدا روجن Rügen . وقضى هذا الملك بقية حياته العجيبية النافعة في الإصلاحات الداخلية وتقنين جميع شرائع الدنمرقة . وكانت مساحة الدنمرقة حين وفاته ضعفي مساحتها في هذه الأيام ، وكانت تشمل الجزء الجنوبي من بلاد السويد ، وكان عدد سكانها مساويا لعدد سكان السويد (٣٠٠٠٠٠٠) والنرويج (٢٠٠٠٠٠٠)

مجتمعين . ثم ضعفت سلطة الملوك بعد وفاة ولدमार الثاني ، حتى إذا كان عام ١٢٨٢ حصل الأشراف من إريك جليبنج Eric Glipping على عهد يعترف فيه بأن جمعيتهم « الدنهف Danehof » برلمان قوى .

وليس في مقدور كائن من كان أن يجعلنا نتصور أعمال أهل اسكنديناوة في هذه الأيام الأولى اللهم إلا إن كان قصاصاً واسع الخيال ، وحسبنا أن نقول عنها إنها جهود جبارة تبذل في سبيل الاستيلاء على هذه الشبه الجزيرة الوعرة الخطرة يوماً بعد يوم وقدماً بعد قدم . لقد كانت الحياة لا تزال فيها بدائية ؛ وكانت موارد الغذاء الأولية فيها هي صيد الحيوان والسمك والزراعة . وكان لا بد من تقطيع أشجار الغابات المترامية الأطراف ، وتأسيس الحيوان البرى ، وجر الماء إلى مجار تمكن الأهلين من الإنتاج ، وإنشاء المرافئ البحرية ؛ وكان لا بد من أن يعتاد الرجال الجلد وتحمل المشاق لمغالبة الطبيعة التي بدت وكأنها تغضب من تطفل الإنسان عليها وتدخله في شئونها . وكان للرهبان السترسيين Cistercian شأن عظيم في هذا الكفاح الذى قضوا فيه حياتهم جيلاً بعد جيل ، فكانوا يقطعون الأشجار ، ويفلحون الأرض ، ويعلمون الفلاحين أساليب الزرع الراقية . وكان من أبطال هذا الكفاح إيرل برجر Earl Birger رئيس وزراء السويد من ١٢٤٨ إلى ١٢٦٦ . فهو الذى ألغى رق الأرض ، وأقام حكم القانون ، وأسس مدينة استكهولم Stokholm (حوالى عام ١٢٥٥) ، وأنشأ أسرة فواكنج Folkung (١٢٥٠ - ١٣٦٣) بأن أجلس ابنه ولدمار على العرش . وأثرت مدينة برجن لأنها كانت منفذ تجارة النرويج ، وأضحت مدينة فزبي Visby القائمة على جزيرة جتلند Gotland مركز الاتصال بين بلاد السويد والعصبة الهانسية . وشيدت كنائس فخمة ممتازة ، وتضاعف عدد الكنائس الكبرى والمدارس ، وأخذ الشعراء يغنون قصائدهم ؛ وفي القرن الثالث عشر أضحت جزيرة أيسلندة Iceland القائمة بعيداً عن البلاد في ضباب المحيط الجامد الشمالى أكثر المراكز الاسكنديناوية في العالم نشاطاً في الأدب .

الفصل الثامن

إنجلترا

١- وليم الفاتح

حكم وليم الفاتح إنجلترا حكماً جمع فيه بمهارة عظيمة بين الشدة ، والقانون ، والتقوى ، والدهاء ، والحداء . فلما أن رفعه إلى العرش الويتان Witan تحت تأثير الخوف والإرهاب ، أقسم أن يطيع القوانين الإنجليزية المعمول بها وقتئذ . وانتهم بعض الأعيان في غربي إنجلترا وشمالها فرصة غيابه في نورمندي وحاولوا إيقاد نار الثورة في البلاد (١٠٦٧) ، فعاد إليهم واندفع في البلاد ينتقم من أهلها أشد الانتقام ، فأطلق لنفسه فيه العنان يقتل الأهلين ، ويهاك الحرث والنسل ، ويدمر البيوت بأساليب منظمة محكمة لم تنج لإنجلترا من آثارها كلها حتى القرن التاسع عشر (٢٤) . وقسم أخصب أراضي المملكة إلى ضياع واسعة وزعها على أعوانه النورمان ، وشجعهم على بناء قصور حصينة يتخذونها قلاعاً يدافعون بها عن أنفسهم ضد السكان المعادين (*) . واحتفظ هو بمساحات من الأرض واسعة لتكون ملكاً للتاج ، واتخذ قطعة من هذه الأرض طولها ثلاثون ميلاً ، مسارحاً للملك يصيد فيها الوحوش . ودمر كل ما كان في هذه البقعة من منازل ، وكنائس ، ومدارس ليفسح الطريق للخيل والكلاب ، وكان يعاقب كل من يقتل أيلًا أو أيلة في الغابة الجديدة بفقء عينه (٢٥) .

(٥) وربما كان ربن هود Robin Hood ، الشهير في القصص والغامض في التاريخ الصحيح ، أحد الإنجليز السكسون الذين ظلوا أكثر من مائة عام يحاربون الفاتحين النورمان حرب المصايات . وكان الفقراء الإنجليز يحبون ذكره ، بوصفه نائراً لم يغلب يعيش في غابة شرودود Sherwood ، ولا يعترف بالقانون النورمانى وينهب مال الأعيان ، ويساعد أرقاء الأرض ، ويعبد القديسين .

وهكذا نشأت في إنجلترا طبقة الأشراف الجدد الذين لا يزال أبناؤهم من حين إلى حين يسمون بأسماء فرنسية ، وانتشر الإقطاع الذي كان من قبل ضعيفاً نسبياً في طول البلاد وعرضها ، وحول الشعب أرقاء أرض . وجعلت الأرض كلها ملكاً للملك ، ولكنه سمح للإنجليز الذين استطاعوا أن يبرهنوا على أنهم لم يقفوا في وجه الفاتحين بأن يعودوا إلى شراء أرضهم من الدولة . وأراد وليم أن يسجل مغامته ويعرفها ، فأرسل عماله في عام ١٠٨٣ ليسجلوا اسم مالك كل قطعة من الأرض في إنجلترا ، وحالها ، ومحتوياتها ؛ وقد ورد في هذا السجل أن الملك « شدد عليهم في أوامره تشديداً لم تبق معه ياردة واحدة من الأرض ، لا . . . بل ولا ثور أو بقرة ، أو خنزير ، لم يكتب في سجله » (٢٦) . وكانت نتيجة هذا العمل هو كتاب الأقطام وهو اسم ينذر بما سيكون له من شأن خطير إذ أصبح هو « الحكم » الأخير في جميع المنازعات العقارية . وأراد وليم أن يضمن لنفسه معونة البلاد الحربية ، ويحد من سلطان أتباعه العظام ، فاستقدم إليه جميع كبار الملاك في إنجلترا - وكان عددهم ستين ألفاً - إلى اجتماع عقد في سلزبرى Salisbury (١٠٨٦) ، وجعل كل واحد منهم يقسم بيمين الإخلاص التام للملك . وكان عمله هذا احتياطاً حكيماً ضد الإقطاعية الفردية التي كانت وقتئذ تقطع أوصال فرنسا .

وبعد فلا بد للإنسان أن يتوقع قيام حكومة قوية بعد الفتح . وهذا ما حدث في إنجلترا وقتئذ ، فقد أقام وليم أو خلع فرساناً ونبلاء ، وأساقفة ورؤساء أساقفة وأديرة ؛ ولم يتردد لحظة في أن يزوج في السجن لوردة عطاء ؛ وأن يتمسك بما له من حق تعيين رجال الدين في مناصبهم . ويقاربه في هذه الناحية جريجورى السابع الذى كان مثله ذا حول وطول ، والذي كان في هذا الوقت عينه يستقدم الإمبراطور هنرى الرابع إلى كنوسا Canossa (*) . وأراد الملك أن يمنع الحرائق

(*) يشير المؤلف هنا إلى مثله كنوسا وسيرد ذكرها فيما بعد (المترجم) .

فأمر سكان إنجلترا بإطفاء نار المدافئ أو تغطيتها(*) قبل الساعة الثامنة مساء ، ومعنى هذا أن يأوى الأهليون إلى فراشهم في فصل الشتاء في هذا الوقت (٢٧) . واشتدت حاجته إلى المال للإتفاق منه على حكومته الآخذة في الاتساع ، وعلى فتوحه المترامية الأطراف ، ففرض ضرائب باهظة على جميع البيوع ، والواردات ، والصادرات ، واستخدام القناطر ، والطرق . وأعاد جميع الضرائب التي ألغاها من قبل إدورد المعترف . ولما علم أن بعض الإنجليز أودعوا أموالهم في سرايب الأديرة ليخفوها عنه ، أمر بتفتيش جميع الأديرة وبنقل كل ما هو محبباً فيها إلى بيت ماله ، ولم يكن بلاطه الملكي يتورع عن قبول الرشا ، وتسجيلها بأمانة في السجل العام (٢٨) . لقد كانت حكومته في صراحة تامة حكومة فاتحن يعتمون أن يجعلوا مكاسب مغامرتهم تتناسب مع ما تعرضوا له من الأخطار .

وكان لرجال الدين النورمان نصيبهم من النصر ، فقد جرى بلافرانك Lafranc القدير المرن من كائن Caen ونصب كبيراً لأساقفة كنتبري وكبيراً لوزراء الملك . فلما جاء وجد رجال الدين الأنجليسكون مولعين بالصيد ، ولعب الررد ، والزواج (٢٩) ، فاستبدل بهم قساوسة وأساقفة ، وروساء أديرة من النورمان ؛ ووضع دستوراً جديداً للأديرة هو المعروف بعادات كنتبري ، ورفع مستوى رجال الدين الإنجليز من الناحيتين العقلية والخلقية ، وأصدر وليم - بإيحاء منه في أغلب الظن - قراراً بفصل المحاكم الكنسية عن المحاكم المدنية ، وأمر بأن ينظر في جميع المسائل الروحية بمقتضى قانون الكنيسة ، وتعهد بأن تنفذ الدولة كل ما تحكم به المحاكم الكنسية من عقوبات . وأمر بأن تجبي العشور من الشعب لمعونة الكنيسة ، ولكنه طلب ألا يبلع أو ينفذ قرار بابوي أو رسالة بابوية في إنجلترا بغير موافقته ، وألا يدخل إنجلترا مبعوث من قبل البابا إلا بإذن ملكي . وفصلت من ذلك الحين جمعية الأساقفة الوطنية عن الويتان وكانت من قبل جزءاً منه ، وأصبحت

(*) وتسمى هذه العملية بالثمة الإنجليزية Curfew . (المترجم)

هيئة مستقلة ، لا تنفذ قراراتها إلا إذا صادق عليها الملك (٣٠) .
ووجد ولیم أن حکم مملكته أيسر عليه من حکم أسرته ، شأنه في هذا شأن الكثرة الغالبة من عطاء الرجال . فقد كانت الإحدى عشرة السنة الأخيرة من حياته مليئة بالنزاع بينه وبين زوجته الملكة ماتلدا Matilda ، وطلب ابنه ربرت أن يكون له السلطان الكامل على نورماندى ، فلما رفض طلبه هذا خرج على أبيه ، وحاربه ولیم حرباً غير حاسمة ، ثم صالحه على أن يوصى له بهذه الدوقية بعد وفاته . وزاد جسم الملك زيادة صعب عليه معها أن يركب الخيل ؛ وحارب فليب الأول ملك فرنسا لخلاف على الحدود ؛ ولما طال مكثه في رون ، وكاد يعجز عن الحركة لبدانته ، سخر منه فليب - على حد قول بعضهم - بأن قال إن ملك إنجلترا « ملازم الفراش للنفاس » ، وأن الشموع ستوقد في الاحتفال العظيم الذى سيقام في الكنيسة بعد أن يلد . وأمر ولیم جيشه أن يحرق مانت Mantes عن آخرها هي وما جاورها ، وأن تلتف كل المحصولات والفاكهة ، ونفذ أمره بحذافيره . وبينما كان ولیم يسير فوق جواده وسط مظاهر التخريب والتدمير وهو ثمل بنخمرة النصر إذ عثر به الجواد فسقط فوق قربوس السرج الحديدى ، فحمل إلى صومعة القديس جرفاس Gervase القرية من رون ، حيث اعترف بذنوبه اعترافاً كاملاً ، وأدلى بوصيته ، وكفر عن هذه الذنوب بأن وزع ثروته على الفقراء والكنيسة ، ووهب المال لإعادة بناء مانت . وترك أبنائه جميعاً ، عدا ، هنرى ، فراش موته ليقتتلوا من أجل وراثة العرش ، وفر ضباطه وخدمه بما استطاعوا أن يستولوا عليه من المغنم ؛ وحمل جثته قروى من أتباعه إلى « دير الرجال » Abbay aux Hommes فى كاثن (١٠٨٧) . ووجد أن التابوت الذى صنع له لا يتسع لجثته ؛ فلما أراد الخدم أن يحسروا جسمه الضخم فى هذا التابوت الضيق ، انفجر الجسم ؛ وملأ الكنيسة كلها برائحة الملك الكريمة (٣١) .

وكانت نتائج الفتح النورمانى كثيرة يخطئها الحصر ، فقد فرض شعب جديد

وفرضت طبقة جديدة على الدنمركيين الذين حاولوا حمل الإنجليز والسكسون ، الذين غلبوا البريطانيين الرومان ، الذين فرضوا سيادتهم على الكلت (*) ، وكان لابد أن تمر عدة قرون قبل أن يثبت الأنجليسكسون والكلت وجودهم في الدم البريطاني واللغة البريطانية ؛ وكان بين النورمان والدنمركيين أو اشج قربي ، ولكنهم في المائة السنين التي جاءت بعد رولو Rollo أصبحوا فرنسيين ، فلما نزلوا بإنجلترا أصبحت عاداتها الرسمية ولغتها الرسمية عادات ولغة فرنسية ، وظلت كذلك ثلاثة قرون . وجاء مع الفاتحين من فرنسا إلى إنجلترا نظام الإقطاع بكل ما فيه من زينة الخيول ، وفروسية ، وعلامات الدروع ونقوشها ، والمفردات التي تعبر عنها . وفرض رق الأرض على إنجلترا فرضاً كاملاً قاسياً إلى حد لم تعرفه من قبل في تاريخها (٣) ، وكان المرابون اليهود الذين جاءوا مع وليم حافزاً جديداً للتجارة والصناعة ؛ ونشأت من الاتصال الوثيق بين إنجلترا والقارة الأوربية أفكار جديدة في الأدب والفن ، وبلغ فن العمارة النورمانى ذروة مجده في بريطانيا ؛ وجاء الأشراف الجدد بعادات جديدة وأخلاق جديدة ، وحيوية جديدة ، وبنظام زراعى خير مما كان في البلاد من قبل . وحسن الأشراف والأساقفة النورمان النظام الإدارى للدولة تحسناً كبيراً فقد أصبح الحكم مركزياً ، ووحدت الدولة وإن يكن هذا التوحيد قد تم عن طريق الحكم المطلق ، وأصبحت الحياة والأموال أكثر أمناً من ذى قبل ، وأقبلت إنجلترا على عهد طويل من السلام الداخلى لم تغز بعده أبداً غزواً ناجحاً .

(•) أبقينا هذا التكرار في اسم الموصول وصلته مجازة للأصل الإنجليزي لأنه مقصود

بذاته . (المترجم)

٢- تومس أبكت

من الأقوال المأثورة في إنجلترا أن يتوسط ملك ضعيف بين كل ملكين قويين ، ولكن الحقيقة أن الملوك الضعاف الذين يتوسطون ملكين قويين لا حد لعددهم . ومصداقاً لهذا نقول إنه لما مات ولیم الفاتح استولى ابنه ربرت على نورمندى وجعلها مملكة مستقلة ، وتوج ابنه الأصغر منه ولیم روفس (الأحمر ١٠٨٧ - ١١٠٠) ملكاً على إنجلترا بعد أن قطع على نفسه عهداً بأن يسلك مسلكاً حسناً مع لانفكرانك متوجه ووزيره . وحكم هذا الملك حكماً استبدادياً حتى عام ١٠٩٣ ، ثم مرض وواعد بأن يكون حسن السلوك ، فلما شفى من مرضه ، عاد إلى استبداده وظل كذلك حتى اغتالته يد مجهولة في أثناء صيده . وظل الرجل التقي أنسلم الذى أصبح بعد لانفكرانك كبير أساقفة كنتربرى يقاوم مقاومة طويلة ، أعيد بسببها إلى فرنسا .

ودعا ابن ثالث من أبناء ولیم الفاتح يدعى هنرى (١١٠٠ - ١١٣٥) أنسلم إلى العودة ، فطلب المطران - الفيلسوف أن يمنح الملك عن اختيار الأساقفة ، فلما رفض الملك هذا الطلب نشب بينهما نزاع طويل اتفق بعده على أن تختار جمعيات رجال الكنائس والرهبان بحضور الملك نفسه الأساقفة الإنجليز ورؤساء الأديرة ، وأن يقدموا له مراسم الولاء بوصفه مصدر أملاكهم وسلطانهم الإقطاعية . وكان هنرى يحب المال ويكره التبذير ؛ ولهذا فرض الضرائب الفادحة ولكنه راعى جانب الاقتصاد والعدالة في حكمه ؛ وحافظ على السلم والنظام في إنجلترا ، عدا معركة واحدة - في تشبريه عام ١١٠٦ - استرد فيها نورمندى إلى التاج البريطانى . وأمر النبلاء أن « يضبطوا أنفسهم في معاملاتهم لزوجاتهم وأبنائهم وبنات رجالهم » (٣٣) . وكان له هو أبناء غير شرعيين وبنات غير شرعيات من عشيقاته المتعددات (٣٤) ، ولكنه أوفى من الكياسة والحكمة

ما جعله يتزوج مود Maud سليلة الملوك الاسكتلنديين والإنجليز السابقين على مهد النورمان ، فطمع بذلك الأسرة المالكة الجديدة بالدم الإنجليزي القديم .

وأرغم هنرى الأشراف والقساوسة على أن يقسموا بمين الولاء لابنته ما تلدا وابنها الشاب الذى أصبح فيما بعد هنرى الثانى . فلما مات الملك غتصب العرش استيفن أمير بلوا Blois وحفيد وليم ، وظلت إنجلترا أربعة عشر عاما تعاني كوارث الموت والضرائب الفادحة فى حرب داخلية امتازت بأشد ضروب القسوة والإرهاب^(٣٥) . وكبر هنرى الثانى فى هذه الأثناء ، وتزوج اليا نور الأكتانية Eleanor of Aquitaine واستولى على دوقيتها ، وغزا إنجلترا ، وأرغم استيفن على الاعتراف به وارثاً للعرش . ولما توفى استيفن صار ملكا على إنجلترا (١١٥٤) ؛ وبذلك انتهى عهد أسرة النورمان وبدأ عهد أسرة البلانتجنجت^(*) . وكان هنرى رجلا حاد الطبع ، كثر المطامع ، قوى الذهن ، يميل بعض الميل إلى الكفر بالله^(٣٦) . وكانت له السيادة الاسمية على مملكة تمتد من اسكتلندة إلى جبال البرانس ، وتشمل نصف فرنسا ، ولكنه ألقى نفسه بآدى العجز فى مجتمع إقطاعى ، مزق فيه كبار الأشراف بجنودهم المرتزقة وحصونهم المنيعة الدولة إلى إقطاعيات يحكمونها بأنفسهم ، ولهذا شرع الملك بنشاط رهيب يجمع المال والرجال ، ويحارب الأشراف ويخضعهم سيداً بعد سيد ، ويدمر القصور الاقطاعية الحصينة ، ويوطد أركان النظام والأمن والعدالة والسلام . وأخضع لحكم إنجلترا أيرلندة التى غلبها ونهبها قراصنة ويلز ، وكان فى إخضاعها حكماً مقتصداً فى ماله وفى جنده . ولكن هذا الرجل القوى ، الذى يعد من أعظم الرجال فى تاريخ إنجلترا كاه ، قد ذل وتحطم حين التقى بتومس أبكت Thomas à Becket ، وهو رجل

(*) كان جوفرى الأنجوى Jeffrey of Anjou والد هنرى الثانى قد لبس علوجاً من نبات الرتم (المسمو planta genêt بالفرنسيه) فى قمته .

ذو إرادة لا تقبل مضاء عن إرادته ودين أعظم قوة من أية دولة قائمة في ذلك الوقت .

ولد تومس في لندن عام ١١١٨ من أبوين نورمانيين من أبناء الطبقة الوسطى . واسترعى الغلام انتباه ثيوبولد Theobald كبير أساقفة كنتربرى ، يذكائه الناصح قبل الأوان ، فأرسله إلى بولونيا Bologna وأكسير Auxerre ليدرس الشرائع المدنية والكنسية . ولما عاد إلى إنجلترا انتظم في سلك رجال الدين ، وما لبث أن ارتقى في المناصب الدينية حتى صار كبير شمامسة كنتربرى . ولكنه كان مثل كثيرين غيره من رجال الدين في تلك القرون الماضية ، رجل عمل أكثر مما كان رجل دين ؛ فكانت الشؤون الإدارية والديبلوماسية أكثر ما تظهر فيها مهارته ؛ وأظهر في هذين الميدانين مقدرة فائقة رفعته إلى مقام الوزارة ولم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره . وساد الوثام بينه وبين هنرى إلى حين ، فكان المستشار الوسيم موضع ثقة الملك في أخص شؤنه ، يشاركه ألعاب الفروسية ، ويكاد يشاركه في ثروته وسلطانه . وكانت مائدته أفخم الموائد في إنجلترا كلها ، وكانت صدقاته للفقراء تضارع كرم ضيافته لأصدقائه . وكان في الحرب يقود بنفسه سبعمائة من الفرسان ، ويبارز الأعداء فرداً لفرد ، ويضع الخطط الحربية ؛ ولما أرسل في بعثة إلى باريس ارتاع الفرنسيون حين رأوا حاشيته الفخمة المولفة من ثمان مركبات ، وأربعين جواداً ، ومائتين من الأتباع ؛ وقالوا في أنفسهم ترى ماذا يكون الملك الذى له مثل هذا الوزير !

وعين كبيراً لأساقفة كنتربرى في عام ١١٦٢ ، فلم يكد يتولى منصبه حتى تبدلت أساليبه تبدلاً تاماً فجائياً كاملاً كأنما حدث ذلك بسحر ساحر ، فتخلي عن قصره الفخم ، وثيابه الملكية ، وأصدقائه من الأشراف ، وبعث إلى الملك باستقالته من الوزارة وارتنى الثياب الخشنة ، فلبس شعراً من الصوف ، وعاش على الخضر ، والحبوب ، والماء ، وكان في كل ليلة يغسل قدمي ثلاثة عشر

متسولا وأضحى من ذلك الوقت مدافعا عن جميع حقوق الكنيسة ، وامتيازاتها ، ومصادر إيرادها . وكان من بين هذه الامتيازات عدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية . وثارث نائرة هنرى ، وهو الذى كان يطمع فى أن يبسط سلطانه على كافة الطبقات ، حين وجد أن المحاكم الكنسية كثيراً ما تترك رجال الدين دون أن تعاقبهم على ما يرتكبونه من الجرائم ، ولهذا دعا فرسان إنجلترا وأساقفتها إلى اجتماع عقده فى كلارندن Clarendon (١١٦٤) ، وحلهم على أن يوقعوا دستور كلارندن الذى قضى على كثير من الحصانات التى كان يتمتع بها رجال الدين . ولكن بكت رفض أن يختم الوثائق بخاتم أسقفيته الكبرى ، فما كان من هنرى إلا أن أذاع القوانين الجديدة غير عابئ بهذا الرفض ، وقدم الرئيس الدينى المريض للمحاكمة أمام المحكمة الملكية . وجاء بكت ، وعارض فى هدوء أساقفته الذين أعلنوا مع الملك أنه مذنب لخروجه على قوانين سيده الإقطاعى ملك البلاد . ولما أمرت المحكمة بالقبض عليه أعلن أنه سيستأنف القضية أمام البابا ، ثم خرج سالماً من القاعة بشيابه الأسقفية التى لم يجرؤ أحد على لمسها . وأطعم فى ذلك المساء عدداً كبيراً من الفقراء فى بيته بلندن ، ثم فر فى أثناء الليل متخفياً سالكاً طرقاتاً ملتوية إلى القناة الإنجليزية ، وعبر المضيق المضطرب الماء قارب ضعيف ، ووجد ملجأ له فى دير قائم فى سانت أومر St Omer فى بلاد ملك فرنسا ، ثم قدم استقالته من منصب كبير الأساقفة إلى البابا اسكندر الثالث . وأيده للبابا فى موقفه ، وأعاد تعيينه فى كرسيه ، ولكنه أرسله ليعيش مؤقتاً معيشة راهب سترسى فى دير بنتني Pontigny .

ونفى هنرى من إنجلترا جميع أقارب بكت ذكوراً وإناثاً ، صغاراً كانوا أو كباراً . ولما جاء هنرى إلى نورماندى خرج تومس من صومعته وصعد منبراً فى فيزلاى Vezelay ، وأعلن حرمان جميع رجال الدين الإنجليز الذين أيدوا دستور كلارندن (١١٦٦) . وكان جواب هنرى أن هدد بمصادرة أملاك جميع الأديرة

والصوامع القائمة في إنجلترا ، ونورمندى ، وأنجو ، وأكين ، والمتسبة إلى دير بنتني إذا استمر هذا الدير على إيواء بكت . وتوسل الرئيس المرتاع إلى بكت أن يغادر الدير ، وعاش الرجل المتمرد المريض من الصدقات في نزل قنر ببلدة سان Sens . وأغرى لويس السابع ملك فرنسا البابا اسكندر الثالث ، فأمر هنرى أن يعيد كبير الأساقفة إلى كرسيه ، وأنذره إذا رفض بأنه سيحرم إقامة جميع الصلوات والخدمات الدينية . الأقاليم الخاضعة لحكم إنجلترا (١١٦٩) . فاضطر هنرى إلى الخضوع ، وجاء إلى أفراش Avranches ، والتقى ببكت ، ووعدته بأن يصلح كل ما يشكو منه ، وأمسك بركاب كبير الأساقفة المتصمر وهو يهيم بالركوب عائداً إلى إنجلترا (١١٦٩) . فلما عاد تومس إلى كنتبري كرر قرار الحرمان على الأساقفة الذين قاموه . فذهب بعضهم إلى هنرى في نورمندى وأثاروا غضبه ، ولعلمهم بالغوا في وصف مسلك بكت . فصاح هنرى قائلاً : « عجباً ! . . . أيجرو رجل يُطعم خبزي . . . على أن يهين الملك والمملكة جميعها ، ولا يأخذ بحق واحد من أولئك الخدم الكسالى الذين يُطعمون على مائدتي فيغسل تلك الإهانة ؟ » . وذهب إلى إنجلترا أربعة من الفرسان الذين سمعوه ، من غير علم الملك على ما يظهر ؛ ووجدوا كبير الأساقفة عند مذبح كنيسة كنتبري في يوم ٣٠ من ديسمبر سنة ١١٧٠ ، فقطعوا جسمه بسيفهم وهو واقف في مكانه .

ورومت المسيحية كلها وثار ناثرها على هنرى ودمغته من تلقاء نفسها بطابع الحرمان العام . فاعتزل الملك العالم في حجرته ثلاثة أيام لا يتنوق فيها الطعام ؛ أصدر بعدها أمره بالقبض على القتلة ، وبعث بالرسل إلى البابا يعلنون براءته من الجريمة ، ووعد بأن يكفر عن ذنبه بالطريقة التي يرتضيها الإسكندر . ثم ألغى دستور كلارندن ، وردّ إلى الكنيسة جميع مالها في بلاده من حقوق وأملاك . وقاد الناس في هذه الأثناء يقدسون بكت ويعلنون أن معجزات كثيرة حدثت عند قبره ، وأعلنت الكنيسة قداسته رسمياً (١١٧٢) ، وسرعان ما أنحلت الآلاف

المؤلفة تنجح إلى ضريحه . وجاء هنرى أخيراً إلى كنتربرى حاجباً نادماً ؛ ومشى الثلاثة الأميال الأخيرة من الطريق على الحجارة الصوان حافى القدمين ينزف الدم منهما ؛ ثم استلقى على الأرض أمام قبر عدوه الميت ، وطلب إلى الرهبان أن يضربوه بالسياط ، وتقبل ضرباتهم ؛ وهكذا تحطمت إرادته القوية أمام السخط العام عليه والمتاعب المتزايدة في بلاده . وأخذت زوجته إليانور ، التي طردها الملك الزانى وبجها ، تأتمر به مع أبنائه لتخلعه عن العرش ؛ وتزعم هنرى أكبر أبنائه فنتنن إقطاعيتين قامتتا عليه في عامى ١١٧٣ و ١١٨٣ ، ومات وهو خارج على أبيه . ثم تحالف ولداه رتشرد وچون ، بعد أن طال انتظارهما موته ، مع فليب أغسطس ملك فرنسا وانضموا به في حرب ضد أبيهما ، ولما طرد من لمان Le Mans جهر بالطعن على الإله الذى حرمه من البلدة التى ولد فيها وأجها ، ومات في شينون Chinon (١١٨٩) ؛ وكان آخر ما نطق به أن سب أولاده الذين غدروا به ، والحياة التى وهبته المحمد والسلطان ، والغنى ، والعاشقات ، والأعداء ، والعار ، والغدر ، والهزيمة .

لكنه لم يخفق الإخفاق كله . نعم إنه قد سلم لبكت الميت بما لم يسلم به لبكت الحى ، لكن حجة هنرى هى التى كسبت المعركة على توالى الأيام : ذلك أن المحاكم المدنية هى التى وسعت اختصاصها وبسطت سلطانها في عهد كل ملك جاء بعده على رعايا الملك سواء كانوا من رجال الدين أو رجال الدنيا (٣٧) . ولقد حرر القانون الإنجليزى من القيود الكنسية والإقطاعية ، ومهد السبيل لثمائه ذلك الثناء الذى جعله من أجل الأعمال التشريعية التى ظهرت منذ عهد رومة الإمبراطورية . ولقد حدا حذو جده العظيم ولیم الفاتح فقوى حكومة إنجلترا ووحدها بإخضاع الأشراف المتمردین الذين أشاعوا الفوضى في البلاد إلى القانون والنظام . وكان نجاحه في هذه الناحية أكثر مما يجب أن يكون : ذلك أن الحكومة المركزية قويت حتى كادت تصبح حكومة مطلقة غير مسئولة إلى أقصى حد ، وحتى

كانت الجولة الثانية في المعركة التاريخية بين النظام والحرية هي التي قام بها الأشراف المناضلون عن الحرية .

٣ - العهد الأعظم أو مجنا كارتا

لقد ورث رتشرد الأول الملقب بلقب الأسد عرش أبيه دون أن ينازعه منازع ، وكان رتشرد ابن اليانور المغامرة المتهورة التي لا تغلب ، ولقد تتبع خطاها ولم يتبع خطأ هنرى القدير التّكيد . ووُلد رتشرد في أكسفورد ١١٥٧ وانتدبته أمه ليصرف شئون أملاكها في أكين ، وفيها أشربت نفسه بثقافة پروفانس المتشككة ، و« بعلوم » الشعراء الغزلين « المرحة » ولم يعد قط رجلا إنجليزيا . وكان حبه للمغامرات والغناء أكثر من حبه للسياسة والإدارة ، وامتلات الاثنان والأربعون سنة التي عاشها بجوادث روائية تكفي لأن تملأ مائة عام ، وكان لشعراء زمانه مثالا يحتلونونه ونصيرا يلقون منه التشجيع . وقد قضى الخمسة الشهور الأولى من حكمه في جمع المال لللازم لحرب صليبية ؛ فخص بهذا الغرض جميع الأموال التي خلفها وراءه هنرى الثانى ، وأقصى آلافاً من الموظفين ثم أعاد تعيينهم نظير جعل يتقاضاه منهم ، وباع صكوكاً بالحرية للمدن التي تستطيع أداء ثمنها ، واعترف باستقلال اسكتلندة نظير ١٥٠٠٠ مارك ، ولم يقبل هذا الثمن القليل لأنه يزهده في المال بل لأنه شديد الحب للمغامرات . ولم يمض على اعتلائه العرش نصف عام حتى أبحر إلى فلسطين ، ولم يكن حرصه على سلامته أكثر من حرصه على حقوق غيره ؛ وقد أثقل كاهل البلاد بالضرائب إلى أقصى طاقتها ، وبدد ما جمعه من المال في الترف ، والولائم ، والمظاهر الكاذبة ، واندفع في العمل خلال العقد الأخير من القرن الثانى عشر بجرأة وتهور جعلوا زملاءه الشعراء يضعونه في صف الإسكندر ، وآثره ، وشارلمان .

وحارب صلاح الدين وأحبه ، وعجز عن هزيمته وأقسم أن يهزمه ، وقفل

راجعا إلى بلاده وأسره في طريق عودته (١١٩٢) ليوبولد دوق النمسا ، وكان قد أساء إليه في آسية ، وأسلمه ليوبولد في بدء عام ١١٩٣ إلى الإمبراطور هنرى السادس . وكان هنرى هذا ثار قديم عند هنرى الثانى ورتشرد ، واحتفظ هنرى السادس بملك إنجلترا سجيناً في حصن ببلدة درنشتين Dürnstein على نهر الدانوب على الرغم من القانون الذى كان معترفاً به في أوروبا بوجه عام والذى يحرم اعتقال رجال الحروب الصليبية ؛ وطلب إلى إنجلترا فدية قدرها ١٥٠,٠٠٠ مارك (١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى) أى نصف الإيراد السنوى لأملاك التاج البريطانى . وكان چون أخو رتشرد وقتئذ يحاول اغتصاب العرش ، فلما لقي مقاومة فر إلى فرنسا وانضم إلى فليب أغسطس في هجومه على إنجلترا . ونكث فليب بعهد قطعه على نفسه بالمحافظة على السلم ، فهاجم الأملاك الإنجليزية في فرنسا واستولى عليها ، وعرض رشا كبيرة على هنرى السادس ليقب رتشرد أسيراً . وضاعت نفس رتشرد بسجنه المريح ، وكتب قصيدة من الشعر الممتاز (٣٨) ، يطلب فيها إلى بلاده أن تفتديه من الأسر . وكانت إيلانور في أثناء هذه الأحداث المضطربة تحكم البلاد حكماً ناجحاً بوصفها نائبة عن الملك معتمدة على النصائح الحكيمة التى يقدمها لها القاضى الأكبر هيوبرت ولتر Hubert Walter كبير أساقفة كنتربرى ، ولكنهما وجدا من العسير عليهما جمع الفدية المطلوبة . ولما أطلق سراح رتشرد آخر الأمر (١١٩٤) أسرع إلى إنجلترا ، وجبى الضرائب وجمع الجند وقاد بنفسه جيشاً عبر به القناة الإنجليزية ليثار لنفسه ولإنجلترا من فليب . وتقول الرواية المأثورة إنه ظل عدة سنين يرفض القداس لثلا يطلب إليه أن يصفح عن عدوه الغادر . فلما تم له استعادة جميع الأملاك التى استولى عليها فليب ركن إلى السلم التى أمكنت فليب من أن يعيش . وتنازع في هذه الأثناء مع أحد أتباعه الإقطاعيين وهو أدهمار Adhemar فيكونت مدينة ليموج Limoges ، وكان قد وجد كنزاً من الذهب مخبوءاً في أرضه ، وعرض على رتشرد جزءاً منه ، لكن رتشرد أبى إلا أن

بأخذه كله ، وحاصر أدھمار . وأصاب رتشرد سهم منطلق من قصر أدھمار الحصين فمات رتشرد « قلب الأسد » في الثالثة والأربعين من عمره إثر نزاع قام على كومة من الذهب .

وخلفه على العرش أخوه جون (١١٩٩ - ١٢١٦) بعد أن لقي بعض المقاومة وعدم الثقة ، وبعد أن اضطره ولتر كبير الأساقفة أن يقسم حين تنويجه أنه قد نال عرشه منتخبا من الأمة (أى الأعيان والمطارنة) وبنعمة الله . ولكن جون الذى خان أباه ، وأخاه ، وزوجه ، لم تكن تقف في وجهه يمين أخرى بعد أيامانه الماضية أو يهيم كثيراً بهذه اليمين ، ولم يكن يبدو عليه شيء من التمسك بالعقائد الدينية شأنه في هذا شأن هنرى الثانى ورتشرد الأول ، حتى ليقال إنه لم يتناول قط القربان المقدس بعد أن بلغ سن الرشد ، بل لم يتناوله أيضاً في يوم تنويجه^(٣٩) . واتهمه الرهبان بالكفر وقالوا إنه اقتنص مرة وعلاً سمياً وقال : « ما أسمن هذا الحيوان وما أحسن طعامه ! ولكنى أقسم أنه لم يسمع قط بالقداس » وغضب الرهبان من قوله هذا لأنه رأوا فيه سخيرية ببدانهم^(٤٠) . وكان جون رجلاً حاد الذهن مجرداً من الضمير ، وكان إدارياً حازماً ممتازاً « ولم يكن صديقاً حميماً لرجال الدين » ، ولهذا افترى عليه بعض الافتراء المؤرخون الإخباريون من رجال الأديرة كما يقول هولنشد Holinshed^(٤١) ؛ ولم يكن مخطئاً على الدوام ، ولكنه كثيراً ما أغضب الناس بمزاجه الحاد ، وملحه ، وفكاهاته البذيئة الشائنة ، واستبداده وغطرسته ، وما فرضه من الضرائب الفادحة التى يحس أنه مضطر إليها للدفاع عن الأملاك الإنجليزية فى القارة ضد فليب أغسطس .

ونال جون فى عام ١١٩٩ على إذن من البابا إنوسنت الثالث بتطبيق لإزبل Isabel أميرة جلوسستر Gloucester بحجة أنها تمت إليه بصلة القرابة ، ولم يلبث

(•) ويسمى من قبيل السخرية بالذى لا أرض له Laekland لأنه لم ينل من أبيه إقطاعية فى أرض القارة كما نال أخوه .

بعد طلاقها أن تزوج بإزابلا أميرة أنجوليم Isabella of Angoulême رغم أنها كانت مخطوبة لكونت لوزنيان Lusignan . وغضب الأشراف في كلا البلدين لهذا العمل واستنجد الكونت بفليب ليأخذ له بحقه . واحتج في الوقت نفسه بارونات أنجو ، وتورين ، وپواتو Poitou ، ومين لدى فيليب قائلين إن جون يستبد بأقاليمهم . وكانت فروض الطاعة الإقطاعية التي ترجع إلى عهد تسليم نورمنديّة إلى رولو تقضى بأن يعترف الأعيان الإقطاعيون في فرنسا ، حتى في المقاطعات التي تملكها إنجلترا ، بملك فرنسا سيداً إقطاعياً عليهم ؛ وكان جون حسب قانون الإقطاع ، بوصفه دوق نورمنديّة ، تابعاً لملك فرنسا ، وأمر فليب تابعة الملكيّ بالقدوم إلى باريس ، ليبرئ نفسه من عدة تهم وادعاءات ، وأبى جون أن يطيع الأمر ، فقضت محكمة الإقطاع الفرنسيّة بمصادرة أملاكه في فرنسا ، ومنحت نورمنديّة ، وأنجو ، وپواتو لآرثر كونت بريطانيا Britany وحفيد هنري الثاني . وطالب آرثر بعرش إنجلترا ، وحشد لذلك جيشاً ، وحاصر الملكة إليانور في ميرابو Mirabeau ، فقادت الملكة بنفسها ، وهي في الثمانين من عمرها ، قوة للدفاع عن ولدها المشاكس . وأنقذها جون من عدوها ، وقبض على آرثر ، ويبدو أنه أمر بقتله ، فما كان من فليب إلا أن غزا نورمنديّة ، وكان جون وقتئذ يقضى شهر العسل في رون وفي شغل شاغل عن قيادة جنده ، فنوا بالهزيمة . وفر جون إلى إنجلترا ، وانتقلت نورمنديّة ، ومين ، وأنجو ، وتورين إلى التاج الفرنسي .

وبذل البابا إنوسنت الثالث ، ولم يكن على وثام مع فليب ، كل ما في وسعه لمساعدة جون ، ثم دب النزاع بينه بين جون . وكان سبب هذا النزاع أنه على أثر وفاة هيوبرت ولتر (١٢٠٥) حمل الملك كبار الرهبان في كنتربري على أن يختاروا جون ده جراي John de Gray ، أسقف نوروك Norwich للمنصب الشاغر ، ولكن طائفة من الرهبان الشبان اختارت رچنلد Reginald نائب رئيس ديرهم ليكون كبيراً للأساقفة . وأسرع المرشحان المتنافسان إلى رومة

يطلب كل منهما تأييد البابا ؛ ولكن إنوسنت رفض أن يؤيدهما جميعاً ،
وعين في المنصب الشاعر استيفن لانجتون Stephen Langton ، وهو مطران
إنجليزى قضى الخمس والعشرين سنة الأخيرة مقيماً في باريس ، وكان
وقت اختياره أستاذاً للاهوت في جامعته . واحتج چون على هذا الاختيار
وقال إن لانجتون لم يكن لديه ما يوهله لأن يشغل أكبر منصب ديني في
إنجلترا ، وهو منصب يجمع بين الوظائف السياسية والدينية . وتجاهل إنوسنت
احتجاج چون ، ودشن استيفن كبيراً لأساقفة كنتربرى (١٢٠٧) في فيتربو
Viterbo من أعمال إيطاليا . وتحدى چون لانجتون بأن يطاء بقدمه أرض
إنجلترا ، وأندر رهبان كنتربرى العصاة بحرق الأديرة فوق رؤوسهم ،
وأقسم « بأसन الله » بأن يبنى كل قس كاثوليكي من إنجلترا إذا أصدر
البابا قراراً بحرمانها ، ويسمل أعين بعضهم ويجدع أنوفهم جزاء وفاقاً لهم
على فعل رئيسهم . وأصدر البابا قرار الحرمان (١٢٠٨) ، وامتنعت
كل الخدمات الدينية في إنجلترا ما عدا التعميد والمسح وقت الوفاة . وأغلق
القباسوسة الكنائس ، وسكنت الأجراس ، ودفن الموتى في أرض لم تدشن ،
ورد چون على هذه الأعمال بمصادرة جميع أملاك الكنائس والأديرة وأعطائها
لغير رجال الدين ؛ وحرم إنوسنت الملك من حظيرة المسيحية ، ولكن چون
لم يعبأ بقرار الحرمان ، وانتصر في عدة وقائع حربية . أيرلندة ، واسكتلندة
وويلز . ووجفت قلوب الشعب هلعاً من قرار الحرمان ، ولكن الأشراف
رضوا بانتهاب أملاك الكنيسة لأن ذلك الانتهاب يحول نهم الملك إلى حين
عن أملاكهم هم .

واختال چون عجباً بانتصاره الموقت ، وأساء إلى الكثيرين بطرفه . عنته ؛
فقد هجر زوجته الثانية ليلد أطفالاً غير شرعيين من عشيقات مستهترات ،
وزج اليهود في السجن لينتزع منهم أموالهم ، وترك بعض المطارنة السجناء

يموتون من فرط المشقة ، وأغضب الأشراف بأن أضاف الإهانات إلى الضرائب الفادحة ، وتشدد في تنفيذ قانون الغاباب البغيض . ولجأ إنوسنت في عام ١٢١٣ إلى آخر ملجأ له ، فأصدر مرسوماً بخلع الملك الإنجليزي عن العرش ، وأعطى رعايا جون من بين الطاعة التي أقسموها له ، وأعلن أن أملاك الملك أصبحت غنيمة مشروعة لكل من يستطيع انتزاعها من يديه النجستين . وقبل فليب أغسطس الدعوة ، وحشد جيشاً رهيباً ، وزحف به على شاطئ القناة الإنجليزية . واستعد جون لصد الغزو ، ولكنه تبين وقتئذ أن أعيان البلاد لن يساعده في حرب ضد بابا مسلح بقوة مادية ودينية معاً . واستشاط الملك غضباً من فعلتهم ، ورأى في الوقت نفسه خطر الهزيمة محققاً به . فعقد اتفاقاً مع بندلف Pandulf ، مبعوث البابا مضمونه أنه إذا ألغى إنوسنت قرار الحرمان الصادر على الملك وعلى إنجلترا ، وقرار الخلع ، واستحال من عدو إلى صديق ، فإن جون يتعهد بأن يرد إلى الكنيسة كل ما صادره من أملاكها ، وأن يضع تاجه ومملكته تحت سيادة البابا الإقطاعية . واتفق الطرفان على هذا ، وأسلم جون إنجلترا كلها للبابا ، ثم استعادها منه بعد خمسة أيام بوصفها إقطاعية بابوية تدين للبابا بالولاء وتوثى الجزية عن يد وهي صاغرة (١٢١٣) .

وأقلع جون إلى بواتو ليهاجم فليب ، وأمر بارونات إنجلترا أن يتبعوه بالسلاح والرجال ، ولكنهم لم يطيعوا أمره . وأدت هزيمة جون عند بوفين Bouvines إلى حرمانه من الألمان وغيرهم من أحلافه الذين كان يتطلع إلى معونتهم ضد توسع فرنسا ، فعاد إلى إنجلترا ليواجه الأشراف الحانقين . واستاء النبلاء من فلاح الضرائب المفروضة عليهم لتمويل حروبه المخربة ، ومن خروجه على السوابق القديمة والقوانين المرعية ، وتسليمه إنجلترا ليشترى به عضو البابا وتأييده . وأرد جون أن يحسم الأمر فيما بينه وبينهم فطلب إليهم أن يؤدوا له قدرًا من المال بدل الخدمة العسكرية ، ولكنهم بعثوا إليه بدلا من هذا المال بوفد يطلب إليه العودة إلى

قوانين هنرى الأول ، التي حمت حقوق الأشراف وحددت سلطات الملك . فلما لم يتلق الأشراف جواباً مرضياً حشدوا قواتهم المسلحة عند استامفورد Stamford ، وبينما كان جون يتلکأ في أكسفورد بعثوا برسلمهم إلى لندن ، فنالوا تأييد حكومة المدينة وحاشية الملك . وعسكرت قوات الأشراف مقابل مؤيدى الملك القلائل عند رنيميد Runnymede على نهر التاميز . وهنا استسلم جون استسلامه الثاني الكبير ، ووقع (١٢١٥) العهد الأعظم أشهر وثيقة في التاريخ الإنجليزى كله :

من جون ملك إنجلترا بعناية الله تعالى . . . إلى كبار أساقفته ، وأساقفته ، وروساء أديرتيه ، وحملة ألقاب إيرل وبارون . . . وجميع رعاياه الأوفياء . تحية . اعلموا أننا بهذا العهد الحاضر نؤكد عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر :

١ - أن ستكون كنيسة إنجلترا حرة لا يعتدى على شيء من حقوقها وحرياتها

٢ - أننا نمنح جميع الأحرار في مملكتنا ، عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر ، جميع الحريات المدونة فيما بعد

١٢ - ألا يفرض بدل خدمة أو معونة . . . إلا المجلس العام لمملكتنا .

١٤ - لكي يجتمع المجلس العام المختص بتقدير المعونات وبدل الخدمات . . . سنأمر باستدعاء كبار الأساقفة ، والأساقفة ، وروساء الأديرة ، وحملة ألقاب إيرل ، وكبار البارونات في البلاد (*) . . . وغيرهم ممن هم تحت رياستنا . . .

١٥ - لن نجيز في المستقبل لكائن من كان أن يأخذ معونة من مستأجره الأحرار (غير الأرقاء) ، إلا إذا كان ذلك لافتدائه ، أو تنصيب ابنه الأكبر فارساً ، أو مرة واحدة لزواج ابنته الكبرى ؛ ولن تكون المعونة في هذه الحالة إلا معونة معقولة . . .

(*) أصبحت هذه الطوائف الخمس المذكورة هنا مجلس اللوردات الإنجليزى فيما بعد .

١٧- لن تعرض الشكاوى العادية على محكمتنا ، بل ينظر فيها في مكان محدد ؛

٣٦- لن يعطى أو يؤخذ بعد الآن شيء نظير أمر يطلبه شخص يبحث حاله . . . بل يجب أن يعطى هذا الأمر بغير مقابل (أى أنه يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة) .

٣٩- لا يقبض على رجل حر ، أو يسجن ، أو ينزع ملكه ، أو يخرج من حماية القانون ، أو يبنى ، أو يؤذى بأى نوع من الإيذاء . . . إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه (أى المساوين له في المدينة) أو بمقتضى قانون البلاد ؛

٤٠- لن نبيع العدالة أو حقاً من الحقوق لإنسان ما ولن نحرم منها إنساناً ما .

٤١- يتمتع جميع التجار بحق الدخول في إنجلترا والإقامة فيها والمرور بها براً أو بحراً سالمين مؤمّنين للشراء والبيع . . . دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة ؛

٦٠- كل العادات والحريات السالفة الذكر . . . يجب أن يراعها أهل مملكتنا كلهم ، سواء منهم رجال الدين وغير رجال الدين ، كل فيما يخصه ، نحو أتباعهم .

وقعناه بيدنا بحضور الشهود ، في المرج المعروف باسم رينميد في اليوم الخامس عشر من شهر يونية من السنة السابعة عشرة من حكمنا (٤٢) .

والعهد الأعظم أساس الحريات التي يتمتع بها العالم الناطق باللغة الإنجليزية في هذه الأيام ، والحق أنه خليق بهذه الشهرة . نعم إنه مقيد ببعض القيود ، فهو ينص على حقوق النبلاء ورجال الدين أكثر مما ينص على حقوق الشعب كله ، ولم تبين فيه الوسائل الكفيلة بتنفيذ الإشارة الدالة على التقى والصلاح الواردة في المادة رقم ٦٠ من العهد ؛ ولقد كان العهد انتصاراً للإقطاع لا للديمقراطية .

كل هذا صحيح ولكنه نص على الحقوق الأساسية وحماها ، وقرر عدم إطالة حبس إنسان بلا محاكمة ، كما أقر نظام المحلفين ، وأعطى البرلمان الناشئ سلطة على المال اتخذتها الأمة فيما بعد سلاحاً لمقاومة الاستبداد ، وبدل الملكية المطلقة ملكية دستورية مقيدة .

بيد أن چون لم يفكر قط في أنه قد خلد اسمه بالنزول عن سلطاته ومطالبه الاستبدادية ، فقد وقع العهد وهو مرغم ، وأخذ غداة توقيعه يأتمر لإلغائه . فقد لجأ إلى البابا ، وكانت سياسة إنوسنت الثالث وقتئذ تهدف إلى استعانة إنجلترا على فرنسا ، فخفف لمعونة تابعه الدليل المهان بأن أعلن أن العهد باطل لا قيمة له ، وأمر چون ألا يخضع لشروطه ، كما أمر الأشراف ألا ينفذوها ، فلما رفض البارونات إطاعة أمره ، أصدر قراراً بجرمانهم هم وأهل لندن والنغور الخمسة ؛ غير أن استيفن لانجتن الذي كانت له اليد الطولى في صياغة العهد أبى أن ينشر قرار الحرمان ؛ وقرر مبعوثو البابا في إنجلترا وقف لانجتن عن العمل ، وأذاعوا قرار البابا ، وجندوا جيشاً من المرتزقة في فلاندرز وفرنسا ، وهاجموا النبلاء الإنجليز ، وأعملوا فيهم النار والسيف ، والسلب والقتل والفسق . ويبدو أن الأشراف لم يلقوا من الشعب معونة خليقة بأن يعتمدوا عليها ؛ ولهذا فإنهم بدل أن يقاوموا الغزاة بقواهم الإقطاعية ، دعوا لويس ابن ملك فرنسا ليغزو إنجلترا ، ويدافع عنهم ، ويستولى على عرش البلاد جزاء له على عمله ؛ ولو نجحت هذه الخطة لأصبحت إنجلترا جزءاً من فرنسا . وحذر مبعوثو البابا لويس من عبور القناة ، فلما خالف أمرهم حرموه هو وجميع أتباعه من حظيرة الدين . ووصل لويس إلى لندن ، وتقبل ولاء البارونات وخضوعهم ، ولكن چون انتصر في كل مكان خارج عن مدينة لندن التجارية ، وكان حين ينتصر قاسياً مجرداً من الرحمة ، ولكنه وهو في عنفوان نشاطه ونصره أصيب بزحار البطن ، واتخذ طريقه وهو في شدة

الألم إلى أحد الأديرة ، ومات في نيوارك Newark في التاسعة والأربعين من عمره .

وتوج قاصد رسولى ابنا لجون لايتجاوز السادسة من عمره ملكا على إنجلترا باسم هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢) ؛ وعين له مجلس وصاية برياسة إيرل بمبروك Pembroke . وشجع الأشراف ارتقاء واحد منهم إلى هذا المنصب ، فأنحازوا إلى هنرى وأرجعوا لويس إلى فرنسا . وشب هنرى وكان ملكا فنانا ، خبيراً بالجمال ، وكان هو الموحى ببناء دير وستمنستر وواهب المال لهذا البناء . وحسب العهد قوة تعمل على التفكك وحاول إلغاءه ولكنه عجز . وفرض الضرائب على النبلاء وأرقتهم إرهابا أوشكوا من أجله أن يثوروا عليه ، وكان كلما فرض ضريبة أقسم أنها ستكون آخر الضرائب . وكان البابوات أيضاً فى حاجة إلى المال ، وأخذوا يجبون العشور من الأبرشيات الإنجليزية برضاء الملك ليمدوا البابوية بالمال فى حربها مع فردريك الثانى . وكانت ذكرى هذا الابتزاز هى التى مهدت السبيل لثورة ويكلف Wycliffe وهنرى الثامن .

وكان إدورد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧) أقل شغفا بالعلم وأكثر عناية بشئون الملك من أبيه . كان رجلا طموحا ، قوى الإرادة ، صبورا فى الحرب . داهية فى السياسة ، خبيراً بالفنون العسكرية وجر المغام ، ولكنه يستطيع إذا شاء أن يكون معتدلا حذراً ، بعيد النظر فى أهدافه ؛ ولهذا كان حكمه من أكثر الأحكام نجاحا فى التاريخ الإنجليزي كله . فقد أعاد تنظيم الجيش ، ودرّب قوة كبيرة من الرماة على استخدام القوس السمحة ، وأنشأ قوة من الجيش المرابط بأن أمر كل إنجليزي قادر على حمل السلاح أن يكون لديه سلاح وأن يتعلم طريقة استخدامه . ولقد وضع بهذا العمل على غير علم منه أساسا عسكريا للديمقراطية . ولما تمت له هذه القوة فتح بها بلاد ويلز ، وكسب اسكتلندة ثم فقدتها ، ورفض أداء الجزية التى تعهد چون بأدائها للبابوات ، وألغى سيادة البابا على إنجلترا .

ولكن أهم ما حدث في حكمه هو نمو البرلمان ، ولعل إدورد قد صار بغير رضاه أهم شخصية في أعظم ما حدث في إنجلترا من أعمال جلييلة - وهو التوفيق ، في الحكم وفي الأخلاق ، بين الحرية والقانون .

٤ - نشأة القانون

وهذه الفترة - من فتح النورمان إلى إدورد الثاني - هي التي اتخذ فيها قانون إنجلترا واتخذت فيها حكومتها الصورتين اللتين احتفظتا بهما حتى القرن التاسع عشر . فقد أصبح القانون الإنجليزي قومياً للمرة الأولى بعد أن بسط القانون الإقطاعي النورمانى سلطانه على القانون الإنجليسكسونى المحلى . فلم يعد القانون الإنجليزي بعدئذ هو قانون إسكس Essex أو مرسيا Mercia أو القانون الدنمرقى بل أصبح « قانون البلاد وعاداتها » ، وإن من العسير علينا أن ندرك الآن ما تنطوى عليه هذه العبارة السالفة الذكر حين نطق بهما رانلف ده جلانفيل Ranulf de Glanville (المتوفى عام ١١٩٠)^(٤٣) . ولقد اشتهر القانون الإنجليزي والمحاكم الإنجليزية بفضل الدفعة القوية التي دفعها بها هنرى الثانى وبفضل قيادة جلانفيل كبير القضاة ، اشتهرا بالإنصاف وسرعة الفصل فى المنازعات (مع شىء من الفساد والرشوة) شهرة حملت ملوك أسبانيا المتخاصمين على أن يعرضوا منازعاتهم على محاكم إنجلترا^(٤٤) . ولربما كان جلانفيل هو مؤلف « رسالتى فى القانون » Tractatus de Legibus التي تعزوها إليه الرواية المأثورة ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإن هذه الرسالة هي أقدم ما لدينا من الكتب فى القانون الإنجليزي . وبعد نصف قرن من ذلك الوقت (١٢٥٠ - ١٢٥٦) أخرج هنرى ده براكتن Henry de Bracton أول خلاصة منظمة للقانون الإنجليزي فى كتابه « فى قوانين إنجلترا وعاداتها » Delegibus et Consuetudinibus Anglise وهو كتاب فى خمسة مجلدات ومرجع من أهم المراجع فى القانون الإنجليزي .

وكانت حاجة الملك المتزايدة إلى المال والجند هي التي أدت إلى اتساع
الوتنجموت Witengemot الإنجليزي كسوفى حتى أصبح هو البرلمان الإنجليزي .
ذلك أن هنرى الثالث أراد أن يحصل على المال أكثر مما يرغب الأعيان في
أن يمدوه به ، وألا يصبر حتى يوافقوا على طلباته ، فاستدعى فارسين من
كل مقاطعة لينضموا إلى البارونات والمطارنة في المجلس العظيم الذى عقد
في عام ١٢٥٤ . ولما تزعم سيمون ده منت فورت Simon de Montfort ،
وهو ابن محارب صليبي من الأسرة الألبجنسية ، ثورة قام بها النبلاء على
هنرى الثالث في عام ١٢٦٤ ، أراد أن يضم الطبقات الوسطى إلى قضيبته ،
قلم يكتف بدعوة فارسين من كل مقاطعة بل دعا أيضاً اثنين من المواطنين
البارزين من كل قصبه مقاطعة أو كل بلدة لينضموا إلى البارونات في جمعية
وطنية . وكان خليفاً هؤلاء الرجال أن يستشاروا هل يؤدون المال أو يكتبون
بالكلام ، وذلك لأن البلدان كانت آخذة في التماء ، وكان التجار ذوى
مال . وأفاد إدورد الأول من المثل الذى ضربه له سيمون ، فلما أن
تورط في الحرب مع اسكتلندة ، وويلز ، وفرنسا في وقت واحد ، اضطر
أن يطلب المال من جميع طبقات الأمة ، فدعا لهذا الغرض « البرلمان
النموذجى » في عام ١٢٩٥ وهو أول برلمان كامل في تاريخ إنجلترا . وقال
في مرسوم الدعوة إن « ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا جميعاً عليه ،
وإن الأخطار العامة يجب أن تقابل بوسائل يتفقون عليها جميعاً » (٥٥) .
ولهذا دعا إدورد اثنين من أهل « كل مدينة ، وقصبه مقاطعة ، وبلدة
كبيرة » للحضور في المجلس الأكبر الذى سيعقد في وستمنستر ، ونص على
أن يختار أولئك الرجال ذوى المكانة من المواطنين في كل منطقة ، ذلك أنه
لم يكن أحد يحلم وقتئذ بحق الانتخاب العام في مجتمع لا تعرف القراءة فيه
إلا أقلية صغيرة ، بل إن « العامة » في « البرلمان النموذجى » نفسه لم يكن
لهم من السلطان ما للأشراف . ولم يكن قد وجد بعد برلمان سنوى يجتمع بمحض

إرادته ويكون هو المصدر الوحيد للتشريع . ولكن اتفق في عام ١١٩٥ على المبدأ القائل بأن القانون الذى يقره البرلمان لا يمكن أن يلغيه إلا البرلمان ، ثم اتفق في عام ١٢٩٧ على ألا تجبى الضرائب إلا بعد موافقة البرلمان ؛ هذه هى المبادئ البسيطة التى قامت عليها أكثر الحكومات ديمقراطية في تاريخ العالم .

ولم يحضر رجال هذا البرلمان الواسع إلا وهم كارهون . وكانوا يجلسون فيه منفصلين عن سائر الطبقات ، ويأبون أن يقرعوا على الأموال المطلوبة إلا في جمعياتهم الإقليمية ، وظلت المحاكم الكنسية تنظر في جميع القضايا التى للقانون الكنسى شأن فيها ، وفي معظم القضايا التى يكون أحد رجال الدين طرفاً فيها . وكان في الاستطاعة محاكمة رجال الدين إذا ارتكبوا جناية كبرى أمام السلطات الزمنية ؛ أما من يحكم عليهم في جرائم أقل من جريمة الخيانة العظمى فكانوا حسب « ميزات رجال الدين » يسلمون إلى محكمة كنسية من حقها وحدها أن تعاقبهم على جرائمهم . يضاف إلى هذا أن الكثرة الغالبة من القضاة كانت من رجال الكنيسة ، لأن دراسة القانون كانت مقصورة في الغالب على رجال الدين . ثم أصبحت المحاكم المدنية في عهد إدورد الأول أكثر مدنية مما كانت قبله ، ولما امتنع رجال الدين عن أن ينضموا إلى غيرهم من الطبقات في الاقتراع على الأموال المطلوبة ، قال إدورد الأول إن على الذين يتمتعون بحماية الدولة أن يتحملوا نصيبهم من أعبائها ، ثم أمر محاكمة ألا تنظر في القضايا التى يكون المدعى فيها أحد رجال الكنيسة ، وأن تنظر في كل قضية يكون أحد رجال الكنيسة هو المدعى عليه فيها^(٤٦) . وزاد مجلس إدورد المنعقد في سنة ١٢٧٩ على هذا بأن حرم بمقتضى قانون مورتمين Mortmain أن تمنح الهيئات الكنسية أرضاً بغير موافقة الملك .

وتما القانون الإنجليزي نمواً سريعاً في أيام وليم الأول ، وهنرى الثانى ، وچون ، وإدورد الأول على الرغم من تعدد جهات الاختصاص على النحو

السالف الذكر . وكان هذا القانون إقطاعياً محضاً شديد الوطأة على رقيق الأرض ، فقد كانت الجرائم التي يرتكبها الأحرار على أرقاء الأرض يعاقب عليها بالغرامة ؛ وكان القانون يميز للنساء أن يمتلكن المال ويورثنه ويتصرفن فيه بالوصية ، كما أجاز لهن أن يتعاقدن ، ويقاضين غيرهن ويُقاضين ، وجعل من حق المرأة أن ترث ثلث أملاك زوجها العقارية بعد وفاته ، ولكن جميع المنقولات التي جاءت بها إلى البيت وقت زواجها ، أو حصلت عليها في أثناء الزواج ، تصبح ملكاً للزوج^(٤٧) . وكانت الأرض كلها من الناحية القانونية ملكاً للملك ينالها أصحابها منه إقطاعاً . وكانت ضيعة السيد الإقطاعي كلها في العادة يوصى بها لابنه الأكبر ، ولم يكن يقصد بهذا أن تبقى الأملاك غير مجزأة ، بل كان يقصد به فوق ذلك حماية السيد الإقطاعي الأعلى من تجزئة التبعة الإقطاعية في جباية المكوس وأداء التزامات الحرب . أما الفلاحون الأحرار فلم يمكن ثمة قانون يلزمهم بأن يورثوا أملاكهم أكبر أبنائهم .

وظل قانون التعاقد غير ناضج في هذا التشريع الإقطاعي . وكانت محكمة للمقاييس والموازين تحدد مستوى الموازين ، والمقاييس ، والنقود ؛ وتفرض رقابة الدولة على استعمالها . وبدأ التشريع التجاري المستنير في إنجلترا « بقانون التجار » (١٢٨٣) و « عهد التجار » *Carta Mercatoria* (١٢٠٣) - وهما عملان جليلان آخرا من الأعمال التي تمت في عهد إدورد الأول .

وتحسنت طرق الإجراءات القانونية تحسناً بطيئاً ، واتبعت لتنفيذ القوانين عدة وسائل ، فجعل لكل حي « رقيب » ولكل حاضرة إقليم شرطي (كُنستبل Constable) ولكل إقليم حاكم . وكان القانون يفرض على جميع الرجال أن يرفعوا عقيرتهم « بصرخة وزعقة » إذا شهدوا اعتداء على القانون ، وأن يشتركوا في مطاردة المعتدى ، وأجيزت الكفالة . ومن فضائل القانون الإنجليزي أن التعذيب لم يكن بلجاً إليه في مناقشة المتهمين أو الشهود . من ذلك أنه لما أغرى

فليب الرابع ملك فرنسا إدورد الثاني بأن يقبض على فرسان المعبد الإنجليزي ، ولم يجد هذا الملك دليلاً يأخذهم به ، كتب البابا كلمنت الخامس ، بتحريض فليب بلا ريب ، إلى إدورد يقول : « تراهي إلينا أنك تحرم التعذيب لأنه مخالف لقانون بلدك ، ولكن ما من قانون للدولة يمكن أن يسمو على القانون الكنسي ، قانوننا . ولهذا آمرك أن تعذب هؤلاء الرجال » (٤٨) .

وخضع إدورد لأمر البابا ، ولكن التعذيب لم يلبجأ إليه مرة أخرى في الإجراءات القانونية الإنجليزية إلا في عهد ميري « اللعينة » (١٥٥٣-١٥٥٨) .

وأدخل النورمان إلى إنجلترا نظام الفرنجة القديم ، نظام التحقيق القضائي أمام المحلفين ، وهم طائفة من المواطنين المحليين ، وذلك في شئون الأقاليم المالية والقانونية . وارتقت محكمة كلارندن (حوالى عام ١١٦٦) بنظام « المحلفين » بأن أجازت للمتقاضين ألا يقرروا صدقهم أو كذبهم عن طريق القتال ، بل أمام لجنة محكمين أى محلفين مؤلفة من اثني عشر فارساً يختارهم من بين المواطنين في الإقليم أمام المحكمة نفسها أربعة من الفرسان يعينهم حاكم الإقليم . وكانت هذه هي الدورة القضائية الكبرى ، أما في الدورة الصغرى التي كانت تعقد للنظر في القضايا العادية فكان حاكم الإقليم نفسه يختار اثني عشر من أحرار الإقليم المجاور للمحكمة . وكان الناس وقتئذ يعارضون في نظام المحلفين كما يعارضونه الآن ، ولم يكن يدور بخلداهم قط أن هذا النظام سيصبح أساساً من أسس الديمقراطية . ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان حكم المحلفين قد حل في إنجلترا كلها تقريباً محل أنظمة التحقيق القديمة التي كانت تجرى حسب الشريعة الهمجية :

٥ - البلاد الإنجليزية

كانت تسعة أعشار إنجلترا في عام ١٣٠٠ ريفاً ، وكان بها مائة بلدة تعد في نظر المدائن التي خلفتها في هذه الأيام قرى صغيرة ، وكان بها مدينة واحدة هي لندن

تزهو على غيرها يسكانها البالغين أربعين ألفاً^(٥٩) - أى أربعة أضعاف أية مدينة أخرى في ذلك الوقت ، ولكنها كانت أقل كثيراً في ثروتها وجمالها من باريس ، أو بروج ، أو البندقية ، أو ميلان ، دع عنك القسطنطينية أو بالرم ، أو رومة . وكانت بيوتها من الخشب ، تعلو طبقتين أو ثلاث طبقات ، ذات سقف هرمية ، وكثيراً ما كانت الطبقات العليا تبرز عن الطبقات التي تحتها . وكانت قوانين المدن تحرم إلقاء فضلات المطابخ ، أو حجر النوم ، أو الحمامات من النوافذ ، ولكن سكان الطبقات العليا كثيراً ما كانوا يلجأون إلى هذه الوسيلة الهينة للتخلص من فضلاتهم . وكانت مياه المنازل القنطرة تتخذ طريقها إلى مياه المطر التي تجرى عند حافة الإفريز ، وكان إلقاء البراز في هذه المياه الجارية محرماً أما البول فكان إلقاءه فيه مسموحاً به^(٥٠) . وكانت المجالس البلدية نبذل جهدها لتحسين وسائل الصحة العامة - فكانت تأمر أهل المدن بتنظيف الشوارع أمام بيوتهم ، وتفرض الغرامات على من يهملون منهم أمرها هذا ، وتستأجر عمالاً يجمعون الفضلات والأقذار ويحملونها في عربات إلى قوارب الفضلات في نهر التاميز . وكان كثيرون من السكان يربون الخيل ، والماشية ، والخنازير ، والدجاج ، ولكن هذا العمل لم يكن كثير الضرر ، لأن الأماكن الحالية كانت كثيرة ، ولأن كل بيت تقريباً كانت له حديقة . وكانت تقوم في أماكن متفرقة أبنية من الحجارة ، مثل كنيسة المعبد Temple Church ، ودير وستمنستر ، وبرج لندن الذي بناه وليم الفاتح ليحمي عاصمته ويضع فيه المسجونين الممتازين . وكان أهل لندن من ذلك الوقت البعيد يفخرون بمدينتهم ، وسرعان ما قال عنهم فرواسار Froissart « إنهم أعظم خطراً من جميع سكان بقية إنجلترا ، لأنهم أقوى أهل البلاد مالا ورجالا » ، ووصفهم الراهب تومس الولسنجهامى Thomas of Walsingham بأنهم « يكادون يكونون أكثر الناس كبرياء ، وغطرسة ، وشرها ، وأقلهم استمسكاً بالعادات القديمة وإيماناً بالله »^(٥١) .

وأنتج امتزاج سلالات النورمان ، والأنجليسكسون ، والدنمركيين ،
والكلت ، ولغاتهم ، وأساليبهم في الحياة ، أنتج هذا الامتزاج الأمة
الإنجليزية ، واللغة الإنجليزية ، والأخلاق الإنجليزية . ولما انفصلت
نورمنديّة عن إنجلترا ، نسيت أسر النورمان المقيمة في إنجلترا بلاد نورمنديّة ،
وتعلّمت حب بلادها الجديدة . وظلت صفات الكلث الصوفية الشعرية
باقية ، وبخاصة عند الطبقات الوسطى ، ولكنها قد خفف منها بأس النورمان
ودنيويتهم ، وظل في مقدور البريطاني الناشئ من هذا المزيج ، وسط نزاع
الأمم ، والطبقات ، وكوارث القحط والوباء ، ظل في مقدور البريطاني
أن يجعل من « إنجلترا المرحّة » ، كما يسميها هنري الهنتنجلوني Henry of
Huntingdon (١٠٨٤ - ١١٥٥) أمة جمة النشاط ، والفكاهة النابية ،
والألعاب الصاخبة ، والرفقة الطيبة ، والمحبة للرقص والأغاني الشعرية ،
والجمعة . ومن هذه الأصلاّب والأجيال القوية نشأت شهوانية حجاج تشوسر
Chaucer العارمة ، والعبارات الطنانة المزوّقة التي كان ينطق بها رجال
العصر الإلزيبي المتفخرون .

الفصل التاسع

إنجلترا - اسكتلندا - ويلز

(١٠٦٦ - ١٣١٨)

جلس هنرى الثانى على عرش إنجلترا فى عام ١١٥٤ وتولى البابوية فى العام نفسه إنجليزى يدعى نقولاس بريكسبير Nicholas Breakspear وسمى باسم هديران الرابع . وبعد عام من ذلك الوقت بعث هنرى جون السلزبرى إلى رومة برسالة تم عن كثير من الدهاء قال فيها إن أيرلندا فى حال يرثى لها من الفوضى السياسية ، والاضمحلال الأدى ، والانحطاط الخلقى ، وعدم الاستقلال الدينى والانحلال . وسأل البابا هل يسمح له بالاستيلاء على هذه الجزيرة التى تسودها النزعة الفردية ، ويعيد إليها النظام الاجتماعى ، ويرغمها على طاعة البابا ؟ وأجاب البابا هنرى إلى طلبه ، إذا جاز لنا أن نصدق جرالدىس كمبرنس Giraldu Cambrensis وأصدر مرسوماً بابويا منح فيه هنرى أيرلندا ، مشروطاً عليه أن يعيد إليها الحكومة النظامية ، وأن يجعل رجال الدين الأيرلنديين أكثر تعاوناً مع رومة ، وأن يفرض بنس واحد ، أى ما يعادل الآن (١٣٣ من الدولار الأمريكى) فى كل عام على كل بيت فى أيرلندا يودى إلى كرسي القديس بطرس (٥٢) . ولم تكن مشاغل هنرى وقتئذ تمكنه من أن يفيد من حالة الفوضى السائدة فى أيرلندا ، ولكنه ظل متحفظاً للإفادة منها .

وحدث فى عام ١١٦٦ أن هزم تيرنان أورورك Tiernan O'Rourke ، ملك بوفنى Bnefni درموت ماك مرو Dermot Mac Murrugh ملك لينستر فى حرب قامت بين الملكين لأن ثانيهما أغوى زوجة الأول . ولما طرد رعايا درموت ملكهم من البلاد فرّ هو وابنته الحسنة إيفا Eva إلى إنجلترا وفرنسا ، وحصل على خطاب من هنرى الثانى يؤكد فيه عطفه على فرد من رعاياه

يساعد درموت على استرداد عرش لينستر . وكانت نتيجة هذا التأكيد أن تلقى درموت من رتشرد فتر جلبرت Richdrd Fitz Gilbert إيرل ممبروك بويلز الملقب « بالقوس السمحة » وعداً بالمساعدة العسكرية إذا تعهد له بأن يزوجه بإيضا وأن يخلفه على عرش مملكة درموت . وزحف رتشرد في عام ١١٦٩ على رأس قوة صغيرة من أهل ويلز إلى أيرلندة ، وأعاد درموت إلى عرشه بمساعدة قساوسة لينستر ، ولما توفي درموت (١١٧١) ورث مملكته . فما كان من رورى أوكنور Rory O.Connor ملك أيرلندة الأعلى وقتئذ إلا أن سار على رأس جيش لقتال الغزاة من أهل ويلز ، وحاصروهم فى دبلن وسد عليهم جميع المسالك . وهجم المحاصرون هجمة صادقة على الأيرلنديين وفكوا الحصار ، وفرّ الأيرلنديون السيئو التدريب الناقصو العتاد . واستدعى هنرى الثانى رتشرد فعبر البحر إلى ويلز ، وقابل الملك ، ووافق على أن يسلمه دبلن وغيرها من اللغور الأيرلندية ، وأن يتولى ما بقى من لينستر إقطاعية من التاج البريطانى . ونزل هنرى إلى البر قرب ووترفورد Waterford (١١٧١) على رأس قوة تبلغ أربعة آلاف رجل ، وتلقى معونة رجال الدين الأيرلنديين ، وقدمت له أيرلندة كلها عدا كونوت Connought وألستر Ulster فروض الولاء ، وتبدل فتح ويلز لأيرلندة فتحاً نورمانيا - إنجليزيا دون إراقة دماء . وعقد المطارنة الأيرلنديون مجلسا دبنيا أعلنوا فيه خضوعهم للبابا خضوعاً تاماً ، وقرروا أن تكون شعائر الكنيسة الأيرلندية من ذلك الحين متفقة مع شعائر كنيسة إنجلترا ورومة . وسمح للكثرة الغالبة من ملوك أيرلندة أن يحتفظوا بعروشهم ، على شريطة أن يعلنوا ولاءهم الإقطاعى للملك إنجلترا ، وأن يؤدوا إليه جزية سنوية .

ونال هنرى بغيته بمهارة فائقة واقتصاد فى المال والأرواح ، ولكنه أخطأ إذ ظن أن القوة التى تركها وراءه تستطيع المحافظة على السلم والنظام . يضاف إلى هذا أن عماله أخذوا يقتلون لاقتسام الغنائم ، كما شرع أعوانهم وجنودهم ينهبون

البلاد دون أن تفرض عليهم إلا أقل رقابة ، وسخر الفاتحون جهودهم لتحويل أهل أيرلنده إلى أرقاء أرض . وعمد الأيرلنديون إلى حرب العصا باب يقاومون بها الفاتحين ، وكانت نتيجة هذا أن هوت البلاد في وهدة الفوضى والدمار ، وظلت كذلك قرناً من الزمان ، حتى عرض بعض الزعماء الأيرلنديين بلادهم على اسكتلنده في عام ١٣١٥ . وكان ربرت بروس Robert Bruce الاسكتلندي قد هزم الإنجليز توا عند بنكبيرن Bannockburn قبل ذلك . ونزل إدورد أخو ربرت في أيرلنده ومعه ستة آلاف رجل ؛ وأصدر البابا يوحنا الثاني عشر قراراً بجرمان كل من يساعد الأسكتلنديين ، ولكن لأيرلنديين جميعهم تقريباً ثاروا إجابة لنداء إدورد ، وتوجوه ملكاً على البلاد في عام ١٣١٦ . ولكنه هزم وقتل بعد عامين من ذلك الوقت ، وأخفقت الثورة وسط مظاهر الفقر واليأس .

ويقول رانلف هيجدن Ranulf Higden ، وهو رجل بريطاني عاش في القرن الرابع عشر ، إن الاسكتلنديين شعب « مرح » ، رجاله أقوياء ، غلاظ إلى حد كبير ، ولكنهم إذا امتزجوا بالإنجليز صلحت حالهم كثيراً . وهم قساة على أعدائهم ، يكرهون القيود أكثر من كراهيتهم كل شيء آخر ، ويرون أن العار كل العار أن يموت منهم رجل في فراشه ، والفخر كل الفخر أن يموت في ميدان القتال (٥٣) .

وبقيت أيرلنده أيرلندية ولكنها فقدت حريتها ، وأصبحت اسكتلنده بريطانية ولكنها بقيت حرة ؛ وتضاعف عدد الإنجليز ، والسكسون ، والنورمان في الأراضي المنخفضة ، وأعادوا تنظيم الحياة الزراعية حسب الأساليب الإقطاعية . وكان ملكولم الثالث Malcolm III (١٠٥٨ - ١٠٩٣) رجلاً محارباً غزا إنجلترا عدة مرات ، ولكن زوجته الملكة مرجريت كانت أميرة أنجليسكسونية نشرت اللغة الإنجليزية في البلاط الاسكتلندي ، وجاءت إلى البلاد برجال الدين الذين يتكلمون اللغة الإنجليزية ، وربت أبناءها على أسس التربية الإنجليزية واتخذ داقد الأول David I ، (١١٢٦ - ١١٥٣) آخر هؤلاء الأبناء وأقواهم

الكنيسة أدواته المختارة لحكم البلاد ، وأنشأ في كلسو Kelso ، ودرای بروج Dryburgh ، وملروز Melrose ، وهولى رود Holyrood أديرة يتكلم رهبانها اللغة الإنجليزية ، وجبى العشور (للمرة الأولى في اسكتلندة) لمعونة الكنيسة ، وأغدق المال على الأساقفة وروساء الأديرة إغداقا جعل الناس يحسبونه من القديسين وإن لم يكن منهم ؛ وأضححت اسكتلندة في عهد دافد الأول كلها عدا مرتفعاتها ولاية إنجليزية^(٥٤) .

لكنها لم تكن أقل استقلالاً مما كانت قبل ، فقد استحال المهاجرون الإنجليز اسكتلنديين محيين لوطنهم الجديد ، وخرج من بينهم آل استيورت Stuart وآل بروس Bruce . وغزا دافد الأول نورثمبرلند وافتتحها ، ثم قدما ملكولم الرابع (١١٥٣ - ١١٦٥) ؛ وحاول ولیم الأسد William the Lion (١١٦٥ - ١٢١٤) أن يستردها ، فأسره هنرى الثانى ولم يطلقه إلا بعد أن تعهد بإخضاع التاج الاسكتلندى للملك إنجلترا (١١٧٤) . وبعد خمسة عشر عاما من ذلك الوقت استطاع أن يتحلل من هذا العهد بأن ساعد رتشرد الأول بالمال في الحرب الصليبية الثالثة ، ولكن الملوك الإنجليز ظلوا يطالبون بسيادتهم الإقطاعية على اسكتلندة . واسترد اسكندر الثالث (١٢٤٩ - ١٢٨٦) جزائر هبريدة Hebrides من النرويج ، واحتفظ بصلات الود والصدقة مع إنجلترا ، ووهب اسكتلندة عصراً ذهبياً يسوده السلم والرخاء .

وتنازع ربرت بروس ، وچون بليول John Balliol ولدا دافد الأول على العرش بعد وفاة اسكندر . وانتهز إدورد الأول ملك إنجلترا هذه الفرصة وتدخل في النزاع وأصبح بليول ملكا على اسكتلندة بفضل تأييده له ، واعترف بليول بسيادة إنجلترا العليا على بلاده (١٢٩٢) . فلما أمر إدورد بليول أن يجهز جيشاً ليقاتل مع إنجلترا في فرنسا ، تمرد النبلاء والأساقفة الاسكتلنديون ، وأمرؤا بليول أن يعقد حلفاً مع فرنسا على إنجلترا (١٢٩٥) ، وهزم إدورد الاسكتلنديين عند

ودنبار (١٢٩٦) ، وتقبل خضوع أشراف البلاد ، وخلع بليول عن العرش ، وعين ثلاثة من الإنجليز ليحكموا اسكتلندا بالنيابة عنه ، وعاد بعد ذلك إلى إنجلترا .

وكان كثيرون من النبلاء الاسكتلنديين يملكون أرضاً في إنجلترا ، فكان عليهم لهذا السبب واجب الطاعة للملكها . ولكن قدماء الغالين الاسكتلنديين ساءم هذا الاستسلام أشد الاستياء ، فأعدّ واحد منهم يدعى وليم ولاس William Wallace جيشاً من عامة الاسكتلنديين ، وبدد شمل الحماية الإنجليزية ، وظلّ عاما كاملا يحكم إنجلترا نائبا عن بليول . ثم عاد إدورد وهزم ولاس في فولكبيرك Falkirk (١٢٩٨) ، وقبض عليه في ١٣٠٥ ، وأمر به فبقرت بطنه وقطعت أطرافه عملا بقانون الخيانة الإنجليزي .

وأرغم مدافع آخر عن استقلال أيرلندا على الخروج إلى الميدان بعد عام من ذلك الوقت . ذلك أن ربرت بروس حفيد بروس الذي كان يطالب بالعرش في عام ١٢٨٦ تنازع مع جون كومين John Comn ، من كبار ممثلي إدورد الأول في اسكتلندا ، وقتله . ولم يكن أمام بروس بعد هذا العمل إلا العصيان ، فتوج نفسه ملكا على اسكتلندا ، وإن لم يؤيده إلا نفر قليل من أعيان البلاد ، وإن كان البابا قد حرّمه جزاء له على جريمته . وزحف إدورد مرة أخرى صوب الشمال ولكنه مات في الطريق (١٣٠٧) . وكان عجز إدورد الثاني نعمة على بروس وبركة ، فقد انضوى رجال اسكتلندا ورجال الدين فيها تحت لواء طريد القانون ، واستولت جيوشه يقودها أخوه إدورد وسير جيمس دجلاس Sri James Douglas ببسالة عظيمة على إدنبرة ، وغزت نورثمبرلند ، وانزعت درهام من الاسكتلنديين . وزحف إدورد الثاني في عام ١٣٠٤ على اسكتلندا بأكثر جيش شهدته البلاد في تاريخها الماضي كله ، والتقى بالاسكتلنديين عند بنكبيرن Bannockburn . وكان بروس قد أمر رجاله بأن يحفروا أمام موقعه

حفرأ يخفونها عن الأعين ، فلما هجم عليه الإنجليز سقط الكثيرون منهم في هذه الحفر ، وهلك الجيش الإنجليزي حتى لم يكذبقي منه أحد . واشتبك الأوصياء على إدورد الثالث في حرب مع فرنسا في عام ١٣٢٨ ، ووقعا معاهدة نورثمبتون Northampton ، وتحررت اسكتلندة مرة أخرى .

وقام في هذه الأثناء نزاع آخر في ويلز أسفر عن نتيجة تختلف عن النتيجة السابقة . ذلك أن وليم الأول طالب بالسيادة عليها بوصف كونها جزءاً من مملكة هرولد Harold المهزم . ولم يتسع له الوقت لضمها إلى فتوحه ، ولكنه أقام على حدودها الشرقية ثلاث مقاطعات على رأس كل منها إيرل Earl ، وشجع رؤساء هذه المقاطعات على أن يوسعوا حدودها في ويلز . وكان القراصنة النورمان يمتاحون وقتل ويلز الجنوبية ، وهم الذين تركوا Fitz (أى ابن) في بعض أسماء أهل تلك البلاد . ثم أخضع كدرجان أب بلدين Cadwgan ap Blepyn أولئك النورمان في عام ١٠٩٤ ؛ وهزم أهل ويلز الإنجليز عند كروين Corwen في عام ١١٦٥ ؛ وشغل هنرى الثاني بالنزاع مع بكت ، فاعترف باستقلال ويلز الجنوبية تحت حكم مايكها المستنير راييس أب جريفيد Rhys ap Gruffyd (١١٧١) ، وبسط لويلين الأكبر Llywelyn the Great حكمه على جميع البلاد بفضل مقدرته العظيمة في الحرب والسياسة ؛ ثم تنازع أبناؤه فيما بينهم وأشاعوا الاضطراب في أنحاء البلاد ، ولكن حفيده لويلين أب جريفيد (المتوفى عام ١٢٨٢) رد إلى البلاد وحدتها ، وعقد الصلح مع هنرى الثالث ، وأنشأ لنفسه لقب أمير ويلز . وعقد إدورد الأول عزمه على أن يضم ويلز واسكتلندة إلى إنجلترا ، فغزا ويلز بجيش ضخم وعمارة بحرية قوية (١٢٨٢) ؛ وقتل لويلين حين التقى مصادفة بقوة صغيرة على الحدود، وقبض إدورد على أخيه دافد ، وعلق رأسه بعد أن فصل عن جسمه هو ورأس لويلين من برج لندن ، وتركهما حتى نحلث شعرهما الشمس والرياح والأمطار. وأضحت ويلز جزءاً من إنجلترا (١٢٨٤)،

وخلع إدورد في عام ١٣٠١ لقب أمير ويلز على ولي عهد إنجلترا :
واحتفظ أهل ويلز في أثناء هذا الارتفاع والهبوط بلغتهم وعاداتهم ،
وظلوا يفلحون أرضهم الصلبة بشجاعة وجلد ، ويسلون أنفسهم في الليل
والنهار بالأقاصيص ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء . وصاغ شعراؤهم في
ذلك الوقت قصص مايبنوجيون Mabinogion ، ومزجوا الأدب مزجاً فذاً
مقطوع النظير بالحنان الصوفي ذي النغم الجميل . وكان الشعراء والمغنون
الجائلون يجتمعون في كل عام في مجلس وطني نستطيع أن نرجع بتاريخه
إلى عام ١١٧٦ ، تعقد فيه المباريات في الخطابة ، والشعر ، والغناء ،
والعزف على الآلات الموسيقية ؛ وكان أهل ويلز مقاتلين بواسل ، ولكنهم
لم يكونوا يصبرون على الحرب الطويلة الأمد ، وكانوا يتوقون إلى العودة
إلى أوطانهم يحمون بأنفسهم نساءهم وأطفالهم وبيوتهم ، وكان من أمثالهم
مثل يتمنون فيه أن يكون « كل شعاع من أشعة الشمس خنجراً يطعن
صدور المحبين للحرب » (٥٥).

الفصل العاشر

بلاد نهر الرين (١٠٦٦ - ١٣١٥)

كانت الأقاليم المحتشدة حول حوض الرين الأدنى ومصابه الكثيرة من أغنى أقاليم العالم في العصور الوسطى . فقد كان في جنوب الرين إقليم فلاندرز الممتد من كاليه Calais محترقاً ببلجيكا الحالية إلى نهر الشلد Sheldt . وكان هذا الإقليم من الوجهة الرسمية إقطاعية من ملك فرنسا ، ولكنه كان من الوجهة الفعلية تحت حكم أسرة مالكة من النبلاء المستنيرين لا يجد من سلطتهم إلا ما كان للمدن من استقلال ذاتي تفخر به . وكان الأهليون القريبون من الرين ينتمون إلى العنصر الفلمنكي ، وأصلهم من عنصر ألماني يسكن البلاد المنخفضة ويتكلمون لهجة ألمانية ؛ أما من كانوا يقطنون في غرب نهر ليس Lys فكانوا من الولون Walloons - وهم خليط من الألمان والفرنسيين امتزجوا بأصل كلتي - ويتكلمون لهجة فرنسية • وأثرت غنت وأودنارد Audenaarde ، وكورتربه ، وإپرس ، وكاسل Kassel في الإقليم الشمالي الشرقي الفلمنكي ؛ وبروج ، وليل ، ودويه في الإقليم الجنوبي الغربي الولوني ، أثرت هذه البلدان من تجارتها وصناعتها وإن كانتا قد سببتا لها الاضطراب . وكانت كثافة السكان في هذه المدن أكثر منها في سائر المدن الأوربية القائمة في شمال جبال الألب ، وكانت هذه المدن تسيطر على حكامها الأشراف في عام ١٣٠٠ ؛ فقد كان قضاة المقاطعات الكبرى يوثفون من بينهم محكمة عليا للبلاد ويتفاوضون مستقلين مع المدن والحكومات الأجنبية^(٥٦) . وكان أولئك الحكام الأشراف في العادة متعاونون مع المدن ، ويشجعون التجارة والصناعة ، وكانت لهم عملة مستقرة ،

ووضعوا منذ عام ١١٠٠ - أى قبل إنجلترا بمائتى عام - نظاماً عاماً للمقاييسن والموازين يعمل به فى جميع المدن .

لكن حرب الطبقات قضت فى آخر الأمر على حرية المدن وحرية حكامها الأشراف . والسبب فى ذلك أن صعاليك المدن زاد عديدهم ، واشتد غضبهم وسلطانهم ، وأن الحكام الأشراف انضموا إليهم ليناهضوا بهم الطبقة الوسطى الغنية المغتره بنفسها ؛ فلجأ التجار إلى فليب أغسطس يطلبون إليه المعونة ، فوعدهم بها يرجو بذلك أن يخضع فلاندرز إلى التاج الفرنسى خضوعاً أتم من ذى قبل . وكانت إنجلترا تحرص على أن تبقى أهم سوق تصرف فيها صوفها بعيدة عن سيطرة ملك فرنسا ، فعقدت حلفاً مع حكام فلاندرز ، مع هينولت Hainault دوق برابانت Brabant وأنو الرابع Otto IV إمبراطور ألمانيا . وهزم فليب جيوش هذا الحلف عند بوفين (١٢١٤) ، وأخضع حكام فلاندرز ، وحى النظام الأبحركى للتجار . ولم ينقطع نزاع السلطات والطبقات بعد هذه الهزيمة ؛ حتى إذا كان عام ١٢٩٧ تحالف الكونت جى ده دمپير Guy de Dampierre مرة أخرى مع فلاندرز وإنجلترا ؛ فما كان من فليب الجميل إلا أن غزا فلاندرز ، وزج جى فى السجن ، وأرغمه على تسليم البلاد إلى فرنسا . فلما أن زحف الجيش الفرنسى لاحتلال بروچ ، ثار العامة عليه ، وهزموا الجنود ، وذبحوا أغنياء التجار ، واستولوا على المدينة . وبعث فليب بجيش قوى ليغسل هذه الإهانة التى لحقت به ؛ وألف عمال المدن من أنفسهم جيشاً مرتجلاً عاجلاً هزموا به الفرسان والجنود المرتزقة التى بعثت بها فرنسا فى معركة كورترية (١٣٠٢) ؛ وأخرج جى ده دمپير الشيخ من سجنه وأعيد إلى منصبه ، واستمتع الحلف العجيب بين الحكام الأشراف والصعاليك الثوار بالنصر عشر سنين .

وظلت البلاد المعروفة لنا الآن باسم هولنده جزءاً من مملكة الفرنجة من القرن الثالث حتى القرن التاسع ؛ ثم أصبحت فى عام ٨٤٣ هى الطرف الشمالى

لدولة لورين الحاجزة(*) التي أنشأتها معاهدة فردون Verdun . وقسمت تلك البلاد في القرنين التاسع والعاشر إقطاعات كى تستطيع صد غارات الشماليين . وقطع الألمان الأشجار من الإقليم الكثيف الغابات الواقع في شمال نهر الرين ، واستقروا فيه ، وأطلقوا عليه اسم هولنדה ، أى أرض الغابات . وكان معظم أهله أرقاء أرض ، منهمكين في كدحهم لانزاع القوت من أرضين لابد لهم أن يقيموا الحواجز حولها لوقايتها من ماء البحر أو لتجفيفها بعد أن تغطي المياه عليها . غير أنها كانت تضم أيضاً مدناً ليست كالمدين القلمنيكية ثروة أو اضطراباً ، بل تعتمد اعتماداً سليماً على الصناعة المستمرة والتجارة المنتظمة . وكانت دوردرخت Dordrecht أكثر هذه المدن رخاء ، كما كانت أوترخت Utrecht مركزاً للعلوم ، وهارلم مقر كونت هولنדה ؛ وأضحت دلفت Delft عاصمة البلاد إلى حين ، ثم انتقلت العاصمة حوالى عام ١٢٥٠ إلى لاهاى The Hague (**). وكان أول ظهور أمستردام في عام ١٢٠٤ حين شاد أحد الأعيان الإقطاعيين قصرأ حصينا عند مصب نهر أمستل Amstel ؛ واجتذب هذا الموقع الأمين على الزيدرزى Zuider Zee والقنوات الكثيرة التي تتحرقه في كل مكان - اجتذب هذا الموقع التجارة ، ثم جعلت المدينة في عام ١٢٩٧ ثغراً حراً تفرغ فيه المتاجر ويعاد شحنها دون أن تؤدى ضرائب جمركية ؛ وأضحى لهولنדה الصغيرة من ذلك الحين شأن عظيم في شئون العالم الاقتصادية ، وفيها غدت التجارة الثقافة كما يحدث في غيرها من البلدان ، فنحن نسمع في القرن الثالث عشر عن شاعر هولنسى يدعى مارلانث Maerlant ، يهجو حياة رجال الدين المترفين هجاء لاذعاً . وبدأ الفن

(*) الدولة الحاجزة هي الدولة المحايدة القائمة بين دولتين ليست علاقتهما في العادة ودية أو قد تصير غير ودية buffer state لمنع الصدام بينهما . (الترجم)

(**) وكان الكونت قد اتخذ هذا المكان ليلتى فيه برفاق الصيد ، وسميت لذلك جرافن هاغ O'Graven Haag أى مأوى الكونت وتسمى الآن دن هاغ den Haag

المولندي حياته الفذة العجيبة في الأدبيرة ، وكان يشمل النحت ، وصناعة الخبز ، والتصوير ، وتزيين الكتب .

وكانت دوقية برابانت تقوم إلى جنوب هولندا ، وكانت تشمل وقتئذ مدائن أنفرس Antwerp ، وبركسل ولوفن Louvain . أما لياج فكان يحكمها أساقفتها حكماً مستقلاً ، وكانوا يتركون لها قسماً كبيراً من الحكم الذاتي ؛ وكان إلى جنوب برابانت مقاطعات هينوات ، ونامور Namur ، ولبرج Limburg ، واكسمبرج ؛ ثم دوقية لورين ومدائنها تريير Trier ، ونانسي Nancy ، ومترز ؛ ثم عدة إمارات أخرى خاضعة خضوعاً اسمياً لإمبراطور ألمانيا ، ولكنها كانت متروكة في الأغلب الأعم لأشرافها الحكام . وكان لكل من هذه الأقاليم تاريخه الحافل بأحداث السياسة ، والحب ، والحرب ؛ فلنودعها ولننتقل إلى غيرها . وكان في جنوبها وغربها إقليم برغنديّة التي تكون الآن الجزء الشرقي من وسط فرنسا ؛ وكانت حدودها تتبدل على الدوام تبديلاً لا يشجعنا على تعيينها ، أما أحداثها السياسية فإنها كفيّلة بأن تملأ مجلدات ضخمة عديمة الفائدة . وحسبنا أن نقول عنها إن رودلف الأول جعلها مملكة مستقلة في عام ٨٨٨ ؛ وإن رودلف الثالث أوصى في عام ١٠٣٢ بضمها إلى ألمانيا . ولكن جزءاً منها ضم إلى فرنسا في هذا العام نفسه وأصبح دوقية تابعة لها . وكان أدواق برغنديّة ، كما كان ملوكها السابقون يحكمونها ، حكماً يدل على الحكمة والذكاء ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تحرص على السلم . ويقع أزهى عصورهم في القرن الخامس عشر .

وكانت سويسرا في العصور القديمة موطن عدد من القبائل المختلفة - الملقبتي Helvetii ، والرثيتي Raeti ، والليبتني Lepouti - وهم خليط من الأصول الكلتية ، والتوتونية ، والإيطالية . واحتلت قبائل الألمانى Alemani الهضبة الشمالية وصبغتها بالصبغة الألمانية ؛ ثم قسمت البلاد بعد انهيار الدولة

الكارولنجية إلى إقطاعات خضعت للدولة الرومانية المقدسة . غير أن استعباد سكان الجبال من أشق الأعمال ، ولذلك فإن أهل سويسرا سرعان ما حرروا أنفسهم من الاسترقاق الإقطاعي وإن ظلوا يؤدون بعض الالتزامات الإقطاعية . وكان أهل القرى المجتمعون في جمعيات ديمقراطية يختارون موظفيهم ، ويحكمون أنفسهم بمقتضى الشرائع الألمانية القديمة شرائع الألمانى Alemanni والبرغنديين . وألف الفلاحون المجاورون لبحيرة لوسرن Lucerne « مقاطعات غابية » (Waldstätte) للدفاع المتبادل - وهذه المدن هي : أورى Uri ، وندولدن Nidwalden ، وشويز Schwyz . ومن هذه المدينة الأخيرة اشتق اسم دولة سويسرا . وكان الأهلون الأشداء سكان المدن التي نشأت عند ممرات الألب - جنيف ، وكنتانس ، وفريبورج ، وبيرن ، وبازل - ينتخبون موظفيهم ، وينفذون قوانينهم الخاصة بهم ، ولم يكن سادتهم الإقطاعيون يعترضون على هذا الأسلوب من الحكم ، ما دامت الضرائب الإقطاعية الأساسية تؤدي لهم :

غير أن كونتات آل هابسبرج الذين كانوا يسيطرون على الأقاليم الشمالية منذ عام ١١٧٣ لم يكونوا يسرون على هذه القاعدة ، ولما أن حاولوا فرض الالتزامات الإقطاعية بأشد ضروب القسوة ، أغضبوا أهل شويز ، فألقت الثلاث المقاطعات الغابية في عام ١٢٩١ « حلفاً أبدياً » وأقسم أهلها أن يتعاونوا على صد الغارات الأجنبية ، والقضاء على الفتن الداخلية ، وأن يفضوا كل منازعاتهم بالتحكيم ، وألا يعترفوا بقاض يُنصب عليهم إذا كان من غير أهل وادهم ، أو كان قد ابتاع منصبه . وسرعان ما انضمت مدائن لوسرن ، وزبورخ ، وكنتانس إلى هذه الجامعة . وسيّر أدواق هابسبرج في عام ١٣١٥ جيشين على سويسرا ليرغموا أهلها على أداء جميع الالتزامات الإقطاعية ، ولكن مشاة شويز وأورى المسلحين بالرمح ذات البلط في رؤوسها هزموا الفرسان النمساويين في

«مراثون سويسرا» ، هزيمة انسحبت على أثرها القوات النمساوية ،
وبجددت المقاطعات الثلاث بين المساعدة المتبادلة (٩ ديسمبر سنة ١٣١٥) ،
وأنشأت الاتحاد السويسرى . ولم تكن سويسرا قد أصبحت بعد دولة
مستقلة ، فقد كان المواطنون الأحرار يعترفون ببعض الالتزامات الإقطاعية ،
وبسيادة إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولكن السادة الإقطاعيين
والأباطرة المقدسين عرفوا كيف يحترمون أسلحة المقاطعات والمدن السويسرية
وحرياتها ، ومهد انتصار مورجارتن السبيل لقيام أكثر الديمقراطيات
استقراراً وأعظمها تمسكاً بالعقل والاتزان فى التاريخ كله (*) .

(*) يبدو أنه ليس ثمة سند تاريخى دال على وجود وليم تل William Tell (٥٨)

الفصل الحادى عشر

فرنسا (١٠٦٠ - ١٣٢٨)

١ - فليب أغسطس

كانت فرنسا حينما جلس على عرشها فليب الثانى أغسطس (١١٨٠) دولة صغرى تكثفها الصعاب ، ولا يكاد أحد يرجو لها عظمة فى مستقبل الأيام . فكانت إنجلترا تمتلك نورمنديّة ، وبريطانى ، وأنجو ، وتورين ، وأكتين - وهى أملاك تعادل مساحتها ثلاثة أضعاف الممتلكات التى يسيطر عليها ملك فرنسا سيطرة مباشرة . وكان الشطر الأكبر من برغنديّة فى حوزة ألمانيا ، وكانت مقاطعة فلاندرز المزدهرة إمارة مستقلة فى واقع الأمر ، شأنها فى هذا شأن مقاطعات ليون Lyons ، وسافوى Savoy ، وشامبيرى Cnambery . وكانت هذه أيضاً حال بروفانس - الجنوب الشرقى من فرنسا - الغنية بالحمر والزيت ، والفاكهة ، والشعراء ؛ ومدائن أرل Arles ، وأفنيون ، وإيكس ، ومارسيليا . وكان إقليم الدوفنيه المحيط بفيينا قد ترك لألمانيا بوصف كونه جزءاً من برغنديّة ، وكان فى هذا الوقت إقليماً مستقلاً يحكمه دوفن dauphin اشتق لقبه من الدلفين (الدّخس) الذى كان شعار أسرته .

وكانت فرنسا الأصلية مقسمة إلى مقاطعات تحمل أسماء مختلفة - دوقيات ، وكنتيات ، وسنيوريات . وسنسكلتيات sensechalties ، وييلياجات (أموريات) Bailliages يحكمها بترتيب أهميتها أذواق ، وكونتون counts ، وسنيورون (سادة) وسنسكالون sensechal (رؤساء خدم الملوك) . ومأمورون bailiffs وكان هذا الحشد المفكك ، الذى كان يسمى فرنسيا Francia منذ القرن التاسع ، خاضعاً للملك فرنسا خضوعاً متفاوت الدرجات ،

مقيداً بقيود كثيرة . وكانت باريس عاصمة الملك في عام ١١٨٠ مدينة ذات مبان من الخشب ، وشوارع كثيرة الأوحال ، وكان معنى لوتيتيا Lutetia اسمها الروماني « بلدة الوحل » ، واشتهرت نفس فليب أغسطس من الروائح الكريهة المنبعثة من الشوارع المارة بجوار نهر السين ، فأمر أن ترصف شوارع باريس كلها بالحجارة الصلدة (٥٩) .

وكان فليب أول ملوك ثلاثة رفعوا فرنسا في ذلك الوقت إلى مكان الزعامة الذهنية ، والأدبية ، والسياسية في أوروبا ، ولكن ملوكاً أقوياء قد سبقوه في فرنسا ، منهم فليب الأول (١٠٦٠ - ١١٠٨) الذي خلد اسمه في التاريخ بأنه طلق امرأته وهو في سن الأربعين وأرغم فولك Fulk كونت أنجو بأن يسلم له الكونتيسة برتراد Bertrade . ووجد القس الذي يبارك هذا الزنى ويعدّه زواجاً ، ولكن إربان الثاني حين جاء إلى فرنسا داعياً إلى الحرب الصليبية الأولى حرم الملك . وأصر فليب على إثمه ائتمى عشرة سنة ، ثم طرد بعدها برتراد ورفع عنه الحرمان ، ولكنه لم يلبث أن تاب من توبته ، واسترد ملكته ، وسافرت معه إلى أنجو ، وعلمت زوجها أن يتصافيا ، ويخيل ليلنا أنها تمتعت كل منهما بكل ما فيها من مفاتن (٦٠) .

وتضحخ جسم فليب وهو في سن الأربعين ، فترك شئون الدولة الخطيرة لابنه لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧) ، المعروف باسم لويس البدين . لكنه كان خليقاً بخير من هذا الاسم ، فقد ظل يحارب أربعاً وعشرين سنة ، يحارب البارونات الذين كانوا يسلبون المسافرين وانتصر عليهم آخر الأمر ، وقوى الملكية بأن نظم لها جيشاً قوياً ، وبذل كل ما في وسعه لحماية الفلاحين ، والصناع ، والحكومات المحلية للمدن ، وأوتي من الحكمة ما جعله يتخذ سوجر Sugcr رئيس الدير وزيراً له وصديقاً . وكان سوجر رئيس دير القديس دنيس Denis (١٠٨١ - ١١٥٠) ريشليو القرن الثاني عشر ، دبر شئون فرنسا بحكمة

وعدالة وبعد نظر ؛ وشجع التجارة وأصلح أحوالها ، وخطط وشاد إحدى روائع المباني القوطية التي تعد أجمل مباني ذلك الطراز وأقدمها عهداً ؛ وكتب وصفاً ممتعاً للسنين التي قضاها في الوزارة ولأعماله فيها ؛ وكان في الواقع خيراً ما أورثه لويس البدين ولده الذي ظل سوجر يخدمه إلى وقت مماته .

وكان لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠) هو الرجل الذي قالت عنه إليانور الأكتانية إنها تزوجت ملكاً فلم تجده إلا راهباً . لقد كان يعمل جاداً في أداء واجباته الملكية ، ولكن فضائله قضت عليه ، فقد بدا لإليانور أن انهماكه في شئون الحكم إهمال منه للواجبات الزوجية ، وأضاف بصبره على علاقتها بعشاقها الإهانة إلى هذا الإهمال ، فما كان منها إلا أن طلقته ، وأسلمت يدها ودوقية أكتين التي تمتلكها إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا . وخابت آمال لويس في الحياة فوجه همه إلى الدين وإلى الصلاح ، وترك العمل لبناء فرنسا القوية إلى ولده .

وكان فليب الثانى أغسطس شبيهاً بفليب الآخر (*) الذى كان سميذاً من الطبقة الوسطى : كان رجلاً ذكياً عملياً يُلطف ذكائه نبلُ عواطفه ، كان يناصر العلوم ولا يتذوقها ، يجمع بين الحذر والدهاء وبين الشجاعة والحزم ، حاد الطبع سريع المغفرة ، لا يتردد في أن يسلك أى سبيل تؤدى به إلى التملك ، ولكنه لم يكن شرهاً في هذه الناحية ، وكان معتدلاً في تقواه يستطيع أن يكون سخياً للكنيسة دون أن يسمح لسُلطان الدين أن يطفئ على شئون السياسية ، ذا صبر ومثابرة نال بهما ما لم يكن يستطيع أن يناله بالمغامرة الجريئة . وكان هذا الرجل عادياً وعظماً (أوجست August) (**) معاً ، عنيداً في لطف ، قاسياً في حكمة ؛ وهذا كان هو الرجل الذى تحتاجه بلاده في وقت أحاطت بها إنجلترا أيام

(*) يقصد لوى فليب ملك فرنسا في القرن التاسع عشر . (المترجم)
(**) هذا هو اللقب الذى منحه إياه راعى كنيسته ولم يشتهر به في المصود الوسطى
غير أن المؤرخين الفرنسيين قد لقبوه به .

عزى الثاني وألمانيا في عهد بربرسا ، ولعل الأقدار قد ساقته إلى فرنسا في هذا الوقت العصيب ، ولولاه لكان من الجائز ألا يبقى لها وجود .

وارتاعت أوروبا لزيجاته ؛ فقد ماتت إزبلا زوجه الأولى في عام ١١٨٩ ، وبعد أربع سنين من وفاتها تزوج إنجبورج Ingeborg الأميرة الدنمرقية . وكان زواجه هذا وذاك زواجا سياسياً ، فيه من التملك أكثر مما فيه من الغرام . ولم ترق لإنجورج في عين فليب ، فهجرها بعد يوم واحد ، ولم يمس على زواجه بها أكثر من عام حتى أقنع مجلساً من الأساقفة الفرنسيين أن يجيز له طلاقها ، ولكن البابا سلسطين الثالث Celestine III أبى أن يوافق على هذا القرار . غير أن فليب تحدى البابا وتزوج في عام ١١٦٩ بأني الميرانية Agnes of Meran ؛ فحرمه سلسطين ، ولكن فليب ظل على عناده وقال في ساعة من ساعات حنازه : « خير لي أن أفقد نصف أملاكى من أن أفارق أنى » . وأمره إنوسنت الثالث أن يرجع لإنجورج ، فلما عصى فليب الأمر حرم البابا الصلب العنيد جميع الخدمات الدينية في أملاك فليب . وثارث نائرة فليب فخلع جميع الأساقفة الذين أطاعوا أمر الحرمان ، وقال في حسرة : « ما أسعد صلاح الدين الذى ليس له من فوقه بابا » ، وهدد بأن يعتنق الإسلام (٦١) . وواصل حربه الدينية أربع سنين بدأ الشعب بعدها يتذمر خوفاً من عذاب النار ، فطرد فليب محبوبته أنى (١٢٠٢) ولكنه أبى لإنجورج محبوسة في إيتامب Etampes حتى عام ١٢١٣ حين ردها إلى عصمته .

وبين هذه الأفراح والاضطرابات فتح فليب نورمندية واسترد رها من إنجلترا (١٢٠٤) ، وضم في السنتين التاليتين بريطانيا ، وأنجو ، ومين ، وتورين ، وپواتو ، إلى أملاكه التى تحت سلطانه المباشر ؛ وأصبح له وقتئذ من القوة ما يستطيع به أن يسيطر على الأدواق ، والكونتة ، والسادة في جميع أنحاء مملكته . وكان مأموروه وعماله يشرفون على الحكومات المحلية ، وصارت

مملكته قوة دُوَلِيَّة كبرى ، ولم تعد رقعة من الأرض ممتدة على ضفتي نهر السين . ولم يسكت چون ملك إنجلترا على ما أصابه من ضياع ملكه ، فأقنع أتو الرابع إمبراطور ألمانيا ، وكونتى بولونى وفلاندرز أن ينضموا إليه فى الوقوف فى وجه هذا التوسع الفرنسى ، وانفقوا على أن يهاجم چون فرنسا من أكتين (وكانت لا تزال ملكا لإنجلترا) وأن يهاجها حلفاؤه من الشمال الشرقى . ولم يوزع فليب قُوَّتَه لملاقاة هذه الهجمات المتفرقة ، بل سار على رأس جيشه الرئيسى لقتال حلفاء چون ، وهزمه عند بوفين ، بالقرب من ليل Lille (١٢١٤) . وأسفرت هذه المعركة عن كثير من النتائج الهامة ، أسفرت عن خلع أوتو ، وتولى فردريك الثانى عرش ألمانيا ، وقضت على زعامة ألمانيا للقارة الأوروبية ، وعجلت اضمحلال الدولة الرومانية الشرقية ، وأخضعت كونت فلاندرز وخلفاءه لطاعة ملوك فرنسا ، وضمت أمين ، ودويه ، وليل ، وسان كتن إلى أملاك التاج الفرنسى ، ووسعت رقعة فرنسا الشمالية الشرقية بالفعل حتى وصلت إلى نهر الرين ، وتركت چون عديم الحول والطول أمام باروناته ، وأرغمته على توقيع العهد الأعظم ، وأضعفت المملَكِيَّة وقُوَّت الإقطاع فى إنجلترا وألمانيا ، على حين أنها قُوَّت المملَكِيَّة وأضعفت الإقطاع فى فرنسا ، ويسرت قيام حكومات المدن المحلية والطبقات الوسطى التى عاونت فليب أعظم معاونة فى السلم والحرب .

ولما أن ضاعف فليب أملاكه ثلاثة أضعاف ما كانت عليه من قبل شرع يحكمها حكما طابعه المهارة والإخلاص . وقضى الرجل نصف وقته فى نزاع مع الكنيسة واستبدل برجال الدين فى مجلسه وفى الوظائف الإدارية رجالا من طبقة الهامين الناشئة . ومنح كثيرا من المدن عهدودا بالحكم الذاتى ، وشجع التجارة بما منح التجار من امتيازات ، وحى اليهود تارة ، ونهبهم تارة أخرى ، وملا خزائنه بالمال بأن استبدل بالخدمات الإقطاعية إتاوات نقدية ، وزاد إيراد الملك من ٦٠٠ جنيه فرنسى إلى ١٢٠٠ (نحو ٢٤٠٠٠٠ رyal أمريكى) فى اليوم

وتمت في أيامه واجهة كنيسة نوتردام Notre Dame ، وبني اللوفر ليكون حصناً يجرس نهر السين^(٦٢) . ولم يمض فلب حـ كانت فرنسة هذه الأيام قد ولدت .

٢ - القديس لويس

ولم يتمكن ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦) في حكمه القصير من أن يفعل الشيء الكثير . وأهم ما يذكره به التاريخ أنه تزوج بلانش القشتالية Blanche of Castille ، وأنه أنجب منها الرجل الوحيد في العصور الوسطى الذي أفلح كما أفلح أشوكا في الهند القديمة في أن يكون في واقع الأمر قديساً وملكاً جميعاً . وكان لويس التاسع في الثانية عشرة من عمره ، وكانت والدته في الثانية والثلاثين حين توفي لويس الثامن . وحافظت بلانش على ما يجري في عروقها من دم ملكي ؛ فقد كانت ابنة ألفونسو التاسع Alfonso IX ملك قشتالة ، وحفيدة هنري الثاني وإليانور الأكتانية ، وكانت ذات جمال ، وفتنة ، ونشاط ، وأخلاق قوية ، ومهارة فائقة . وكانت في الوقت عينه ذات أثر كبير في عصرها لما انتصفت به من الفضائل بوصفها زوجة وأرملة ، وإخلاص لبنيها الأحد عشر . ولم تكن فرنسا تكرمها لأنها برونس الملكة الصالحة Blanche la bonne reine فحسب ، بل كانت

تكرمها أيضاً لأنها برونس الأم الصالحة Blanche la bonne mère . وقد اعتقت في حياتها كثيرين من أرقاء الأرض الذين يعملون في الضياع الملكية ، وتصدقت بالأموال الكثيرة ، وأدت من مالها البائتات لكثير من البنات التي يحول فقرهن دون تشجيع الشبان على جهن . وأعانت بالمال بناء كنيسة شارتر Chartres الكبيرة . وبفضل نفوذها أظهر زجاج الكنيسة الملون العنبراء مريم في صورة الملكة لافي صورة العذراء^(٦٣) . وكانت مفرطة في حب ابنها لويس ، ولم تكن كريمة في معاملتها زوجته . وقد عكفت

على تربيته على الفضائل المسيحية ، وكانت تقول له إنها تفضل أن تراه ميتاً عن أن تراه يرتكب أحد الذنوب البشرية^(٦٤) . على أن أعمالها هذه لم تكن هي التي جعلت لويس رجلاً متديناً مخلصاً لدينه ؛ وذلك أنها هي نفسها قلما كانت تضحى بالسياسة في سبيل العاطفة ؛ فقد انضمت إلى الحرب الألبجنسية الدينية ، لكي تبسط سلطان التاج على فرنسا الجنوبية . وظلت تحكم المملكة تسع سنين (١٢٢٦ - ١٢٣٥) كبر في أثنائها لويس ، وقلما استمتعت فرنسا بحكم خير من حكمها . وثار البارونات في بداية حكمها نائبة عن ولدها ، ظنا منهم أن في مقدورهم أن يستعيدوا من امرأة ما انتزعه فيليب الثاني منهم من سلطات ؛ ولكنها تغلبت عليهم بحكمتها وسياستها وطول أناة ؛ وقامت لإنجلترا مقاومة شديدة ؛ ثم وقعت معها هدنة بشروط عادلة . ولما بلغ لويس التاسع سن الرشد ، وتولى شئون الحكم ، ورث مملكة قوية ، مستمتعة بالسلم والرخاء .

وكان لويس شاباً وسيماً ، أطول من معظم الفرسان بمقدار طول رأسه ، حسن الملامح دقيقها ، أبيض لون البشرة ، ذا شعر أشقر غزير ، وكان ذا ذوق راق ، مفرماً بالأثاث الفخم المترف ، والثياب الملونة ؛ ولم يكن مكباً على مطالعة الكتب ، بل كان يميل إلى اقتناص الحيوان وصيد الطير ، وضروب التسلية والألعاب الرياضية ؛ ولم يكن قد أصبح بعد قديساً ، وشاهد ذلك أن راهباً شكاً بلانش من مغازلة ولدها للفتيات ، فبحث له عن زوجة ، وعاش معها عيشة الهدوء والاستقرار ، وأصبح مضرب المثل في وفاء الأزواج ونشاط الآباء . وكان له أحد عشر ولداً كان له هو نصيب موفور في تربيتهم ؛ فتخلى على الترف شيئاً فشيئاً ، واعتاد بالتدريج عيشة البساطة المتزايدة ، وصرف همه في شئون الحكم ، والصدقات ، والتقوى ، وكان يرى أن الملكية أداة للوحدة القومية واتصالها ، وحماية الفقراء والضعفاء من الأقلية العليا المحظوظة .

وكان يحترم حقوق النبلاء ، ويشجعهم على الوفاء بالترامانهم لأرقاء الأرض ،

والأنباع ، والسادة ؛ ولكنه لا يطبق الاعتداء على سلطنة الملك الحديثة العهد ؛ ويمنع بعزيمته الماضية أن يقع ظلم من سيد على تابع . وكثيراً ما أنزل أشد العقاب بالبارونات الذين قتلوا أتباعهم من غير محاكمة . ولما أن شتى إنجران ده كوسى Enguerrand de Coucy ثلاثة طلاب فلمنكيين لقتلهم بضعة أرناب برية في ضيعته ، أمر لويس بسجنه في برج اللوفر ، وهدده بالشتى ، ولم يطلقه إلا بعد أن اشترط عليه أن يبني ثلاث كنائس صغيرة تتلى فيها الصلوات كل يوم لأرواح ضحاياها ، وأن يهب الغابة التي صاد فيها الطلبة الشبان الأرناب لدير القديس نقولاس ، وأن يفقد في مزرعته حق الصيد والحقوق القضائية ، وأن يخدم ثلاث سنين في فلسطين ، ويؤدى إلى الملك غرامة قدرها ١٢,٥٠٠ جنيه^(٦٥) . وحرم لويس النار الإقطاعى والحروب الإقطاعية بين الأمراء ، ونهى عن المبارزة بوصفها وسيلة من الوسائل القضائية . . . ولما حلت المحاكمة عن طريق الأدلة والبراهين محل القتال ، تخلت محاكم البارونات عن مكانها شيئاً فشيئاً للمحاكم الملكية التي نظمها في كل مقاطعة مأمورو الملك ، وتقرر حق استئناف أحكام القضاة البارونات إلى محكمة الملك المركزية ؛ وشهد القرن الثالث عشر في فرنسا ، كما شهد إنجلترا استبدال قانون الدولة العام بالقانون الإقطاعى . وقصارى القول أن فرنسا لم تنعم منذ أيام الرومان بما نعمت به في عهد لويس التاسع من أمن ورخاء ؛ وحسبنا دليلاً على هذا أن ثروة فرنسا في أيامه بلغت من الوفرة درجة ارتفعت بها العمارة القوطية إلى أقصى حدود الكثرة والكمال .

وكان يعتقد أن في مقدور الحكومة أن تكون عادلة كريمة في علاقاتها الخارجية دون أن تفقد بذلك هيبتها وقوتها . وكان يتجنب الحرب أطول أمد مستطاع ؛ فإذا لاح خطر الاعتداء عليه نظم جيوشه أحسن تنظيم ، ووضع خططه الحربية ، وقادها - في أوربا - بجد ومهارة نال بهما سلماً كريمة لم تترك في نفوس أعدائه رغبة في الانتقام . وما كادت فرنسا تتأكد من سلامتها ، حتى

عهد الملك إلى سياسة المصالحة التي قبل بمقتضاها التوفيق بين الحقوق المتعارضة ورفض التهذبة الناشئة من إجابة المطالب غير العادلة . وقد رد إلى إنجلترا وأسبانيا أقاليم اغتصبها منهما أسلافه ، وأسف لذلك مستشاروه ، ولكنه خدم بعمله هذا استتباب السلام ، ونجت فرنسا من الهجوم حتى في أثناء غياب لويس في الحروب الصليبية . ويقول عنه ولیم الشارتريسى William of Chartres إن « الناس كانوا يخشونه لأنهم موقنون بعدله »^(٦٦) . ولم تشبك فرنسا من ١٢٤٣ إلى ١٢٧٠ في حرب مع عدوها مسيحي ؛ ولما أن أخذ جيرانها يحارب بعضهم بعضاً بذل لويس ما يستطيع من جهد للتوفيق بينهم ، ونخر من قول مجلسه إن من الواجب إثارة هذا النزاع لكي تضعف بذلك قوة من قد يصبحون أعداءه في مستقبل الأيام^(٦٧) . وكان الملوك الأجانب يحكمونه فيما يشجر بينهم من نزاع ، وكان الناس يعجبون كيف يستطيع هذا الرجل الصالح أن يكون ملكاً صالحاً .

ولم يكن لويس « ذلك الوحش الكامل الذي لم يعرفه العالم قط » - أى الرجل المبرأ من جميع العيوب . فقد كان يغضب أحياناً ، ولعل سوء صحته هو سبب غضبه . وكانت سداجته تصل في بعض الأحيان إلى حد الجهالة أو السداجة اللتين يستحق عليهما أشد اللوم ، ودليلنا على ذلك ما ارتكبه من خطأ شنيع إذ تورط في الحروب الصليبية والمعارك الخاسرة في مصر وتونس ، حيث ضاعت أرواح كثيرة فضلاً عن روحه هو ؛ ومع أنه راعى واجب الشرف والأمانة في معاملته أعداءه المسلمين ، فإنه لم تطاوعه نفسه على أن يطبق في معاملته إياهم روح التفاهم الكريم الذي نجح به أيما نجاح مع أعدائه المسيحيين . وقد دفعه إيمانه الديني القوي الطيبة بإيمان الأطفال إلى درجة من عدم التسامح اللبني ساعدت على إنشاء محكمة التفتيش في فرنسا ، وهدأت ما تنطوى عليه نفسه من رحمة نحو ضحايا الحرب الصليبية الألبجنسية . وقد امتلأت خرائطه بالبضائع

والأموال التي صادرها من المارقين الذين حكم بإدانتهم^(٦٨) ، وقد خانته روحه المرحة وفكاهته في معاملته اليهود الفرنسيين .

فإذا أسقطنا من صحيفته هذه العيوب رأينا أنه قد اقترب قربا يشرفه من المثل المسيحي الأعلى ، انظر إلى ما يقوله عنه جوفنيل Joinville لم أسمعه قط في يوم من أيام حياتي يقول قالة السوء عن أي إنسان^(٦٩) . ولما أن قبل أسروه المسلمون خطأ منهم عشرة آلاف جنيه فرنسي (أي نحو ٢٨٠٠٠٠٠ ربال أمريكي) أقل من الفدية المتفق عليها ، أرسل لويس بعد أن أطلق سراحه جميع القدر الناقص من مال الفداء ، وأغضب بذلك مستشاريه^(٧٠) . وقبل أن يغادر البلاد للقتال في حربه الصليبية الأولى ، أمر موظفيه في جميع أنحاء مملكته « أن يتلقوا كتابة ، وأن يحققوا ، كل ما عساه أن يقدم فينا أو في أسلافنا من الشكاوى . وكذلك جميع ما يقام على مأمورينا أو محافظينا أو حراس غاباتنا ، أو رؤساء جنودنا أو مرعوسهم من دعاوى خاصة بمظالم ارتكبوها أو اغتصاب للأموال »^(٧١) . ويقول جوفنيل « وكثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة ، ويجلس مستنداً إلى شجرة في غابة فنسن Vincenne ويأمرنا بالجلوس حوله . ويقبل عليه كل من له مظلمة ويتحدث إليه دون أن يحول بينه حائل أو يقدمه حاجب » . ثم يفصل في بعض القضايا بنفسه ، ويحيل بعضها إلى مستشاريه الجالسين حوله ، ولكنه كان يعطي كل شك حق استئناف الحكم للملك نفسه^(٧٢) . وقد أنشأ المستشفيات والملاجئ* ، والأديرة ، والمضاييف للغرباء ، وبيتاً للمكفوفين ، وآخر للعاهرات الثابتات « بنات الله » ، وأمر عماله في كل مقاطعة أن يبحثوا عن العجزة والفقراء ، وينفقوا عليهم من الأموال العامة . وكان أينما سار يجعل من مبادئه المقررة أن يطعم مائة وعشرين فقيراً في كل يوم . وكان يأمر بأن يجلس معه على مائدته ثلاثة منهم ، يتولى هو تقديم الطعام لهم ويغسل بنفسه أقدامهم^(٧٣) . وكان يفعل ما يفعله هنري الثالث ملك إنجلترا . فيعطف على المائدة في خدمة المخدمين ، ويطعمهم بيديه . ولما حل القمح

بنور مندية ، أنفق الأموال الطائلة في توفير الطعام للمحتاجين من أهلها . وكان يقدم الصدقات كل يوم للمرضى ، والفقراء ، والأرامل ، والنساء اللاتي في حالات النفاس ، والعاهرات ، والعاجزين من العمال « حتى ليتعذر علينا أن نحصى صدقاته » (٧٤) . ولم يكن يفسد هذه الصدقات بإذاعتها بين الناس . وكان الفقراء الذين يغسل أقدامهم يختارون من بين المكفوفين ، وكان يعمل عمله هذا خفية ، ويقال لهؤلاء إن الملك هو الذى يخدمهم ، ولم يكن أحد من الناس يعرف زهده وتعذيبه نفسه حتى شوهدت آثارهما على جسمه بعد وفاته (٧٥) .

وأصيب أثناء حروبه في عام ١٢٤٢ بالمalaria في مناطق سانتونج Saintonge ؛ وأسفر هذا المرض عن إصابته بفقر دم خبيث ، وأوشك على الموت في عام ١٢٤٤ . ولعل هذه المصائب قد زادت روحه الدينية تدريجاً ، فإنه ما كاد يشفى من مرضه حتى أقسم أن يشن الحرب الصليبية ، وأضعف صحته بانهماكه زهده وتعذيب نفسه . ولما عاد من حربه الصليبية الأولى ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره كان قد انحنى جسمه وأصابه الصلع ، ولم يبق من نضرة شبابه وجماله إلا ما يخلعه عليه إيمانه الساذج من خلق جميل وإرادة طيبة . وكان يرتدى قيصاً من الشعر ، تحت مئزر الرهبان الرمادى ، ويأمر بأن يُضرب بسلاسل صغيرة من الحديد ، ويجب طائفتى الرهبان الحديدتين - الفرنسيسكان والدمنيكان ، ويهيم المال بلا حساب ، ولم يمتنع عن أن يكون هو راهباً فرنسيسكانياً إلا بعد جهد جهيد . وكان يحضر الصلوات مرتين كل يوم ، ويتلو الأدعية المقررة أدعية الساعات الثالثة والسادسة والتاسعة ودعاء المساء ، ويتلو صلاة العذراء (*) خمسین مرة قبل أن يأوى إلى فراشه ، ويصحو في منتصف الليل لينضم إلى قساوسته في صلاة السحر في كنيسة قصره (٧٦) . وكان يمتنع من مباشرة زوجه في صيام الميلاد

والصوم الكبير : وبلغ من تمسكه بشعائر الدين أن كان معظم رعاياه يتسمون من تقواه وبلقبونه « الأخ لويس » . وقالت له امرأة جريئة : « إن من الخير أن يكون في مكانك ملك غيرك ، فلست أنت إلا ملك الفرنسيين والدمنيكان » . : إن من العار أن تكون أنت ملك فرنسا ، ومن أعجب العجائب ألا يخلعوك » : فأجابها لويس بقوله : « لقد قلت حقاً . . . فلست خليفاً بأن أكون ملكاً . . . ولو أراد متقذنا لوضع في مكاني رجلاً غيري يعرف خيراً مني كيف يحكم المملكة » (٧٧) .

وكان شديد التحمس لخرافات أهل زمانه ويشاركهم فيها . من ذلك أن دير القديس دنيس كان يدعى أن لديه مسباراً من الصليب الحق ، وحدث أن وُضع المسبار في غير موضعه بعد احتفال عُرُض فيه على الشعب ، فثارت لهذا الحادث ضجة كبيرة ، ثم وُجد المسبار وارتاح الملك كثيراً لوجوده ، حتى قال : « لقد كان خيراً لي من هذا أن تبتلع الأرض أحسن مدينة في ملكي » (٧٨) . وفي عام ١٢٣٦ احتاج بولدون الثاني إمبراطور القسطنطينية إلى المال لينقذ دولته المتداعية ، فباع للويس تاج الأشواك الذي لبسه المسيح في آلامه بأحد عشر ألف جنيه فرنسي (٢,٢٠٠,٠٠٠ ريال أمريكي) . واشترى لويس من الدلال نفسه بعد خمس سنين من ذلك الوقت قطعة من الصليب الحقيقي ، ولربما كان المقصود بهذا الشراء وذاك أن يكون المال هبة من لويس لدولة مسيحية تفرج به أزمته . وأمر لويس بطرس المنتربلي Peter of Montreuil لينبئ سينت شابل Sainte Chapelle ليُودع فيها هذان الأثران .

ولم يكن لويس رغم صلاحه هذا أداة طيعة في أيدي رجال الدين ، فقد كان يدرك ما في طبيعتهم البشرية من عيوب ، ويعاقبهم عليها بالتدوية الطبية والتفريع العلني (٧٩) . وقد قيد سلطات المحاكم الكنسية ، وبسط سلطة القانون على جميع المواطنين ، سواء كانوا من رجال الدنيا أو من رجال الدين ، وأصدر في عام

١٢٦٨ أول الأوامر العالية التي قيد بها حق البابا في تعيين أصحاب المناصب الدينية وجباية الضرائب في فرنسا : « تقرر أنه لا يجوز لأحد أن يفرض أو يجبي أية طريقة كانت فروضاً أو ضرائب مالية فرضتها محكمة رومة . . . إلا إذا كانت القضية معقولة ، متفقة مع أصول الدين ، وعاجلة جداً . . . ونالت موافقتنا الصريحة من تلقاء أنفسنا ، وموافقة كنيسة مملكتنا ، » (*) .

وقد بقي لويس الملك على الدوام رغم زهده وميوله الدينية ؛ ولقد حافظ على جلال الملك حتى ساعة أن ظهر واقفاً على قدميه ، مرتدياً ثياب الحاج ، وبیده عصا الحاج ليبدأ حربه الصليبية الأولى (١٢٤٨) . وهو صاحب « الجسم الرفيع » النحيل ، والوجه الشبيه بوجوه الملائكة الأطهار ، والمحيا الملىء بشراً وسماحة « (٨١) كما يصفه فراسلمين Fra Salimbene . وقد بكت الملكة بلانش وهو يفارقها بعد أن أنهاها عنه في البلاد وإن كانت في سن الستين وقالت : « يا أحب الأبناء وأجملهم ، يا أجل الأبناء وأرقهم قلباً ، إنى لن أراك بعد اليوم » (٨٢) . وأسر لويس في مصر ، وظل في الأسر حتى اقتدى بمبلغ من المال جمعه بلانش بعد عناء كبير ، ولكنه لما عاد إلى فرنسا مهزوماً ذليلاً وجد أن أمه قد توفيت . ثم أقدم في عام ١٢٧٠ رغم ضعفه ومرضه على حرب صليبية أخرى ونزل هذه المرة في تونس . ولم تكن هذه مغامرة جنونية سخيفة كما بدت للناس بسبب خيبتها . ذلك أن لويس قد سمح لأخيه شارل دوق أنجو أن يقود جيشاً فرنسياً إلى إيطاليا ، وكان يبغى من وراء هذا أن يضعف سيطرة الألمان عليها ، ويرجو أن يتخذ صقلية قاعدة تغزو بها فرنسا بلاد تونس ، وبعد أن وصل المحارب العظيم المحطم الجسم الصغير السن إلى أرض تونس ، مات بزحار البطن . وسلكته

(*) ملمان Milman في ص ١١٩ من المجلد السادس من كتاب « تاريخ المسيحية اللاتينية History of Latin Christianity » . والرأي السائد أن هذا القرار صحيح من الوجهة التاريخية (٨٠) ، ولكن ربما كان المدافعون عن فليب الرابع قد اخترعوه من عديم ليكون سلاحاً وهمومته في وجه بنيها الثامن . انظر دائرة المعارف الكاثوليكية في اسم لويس التاسع .

الكنيسة بعد سبع وعشرين سنة من موته في عداد القديسين . وظل الناس بعد وفاته أجيالا وقروناً يرون أن حكمه هو العصر الذهبي في تاريخ فرنسا ، ويعجبون كيف لا تتيح الأقدار التي لا يفقهون تصرفها لأموال البشر ملكاً آخر لفرنسا بمثله . ذلك أنه كان ملكاً مسيحياً بحق .

٣ - فليب الجميل

زادت الحروب الصليبية من قوة فرنسا ، وكان لها فيها شأن كبير . وأكسبها طول حكم فليب أغسطس ولويس التاسع استقراراً واتصالاً في الحكم في الوقت الذي كانت فيه إنجلترا تعاني الأمرين من إهمال رتشارد الأول ، واستهتار جون ، وعجز هنري الثالث ، وكانت فيه ألمانيا مفككة الأوصال من أثر الحروب الناشئة بين الأباطرة والبابوات ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت فرنسا أقوى دول أوروبا كلها .

وكان فليب الرابع يلقب بالجميل le Bel لجمال جسمه ووجهه ، لا لدعائه السياسي وجرأته وقسوة قلبه . وكان ذا آمال واسعة : كان يأمل أن يخضع كل الطبقات - الأشراف ، ورجال الدين ، وأهل المدن ، وأرقاء الأرض - لحكم القانون وسيطرة الملك مباشرة ، وأن يقيم نماء فرنسا وتقدمها على أساس التجارة والصناعة لا الزراعة ، وأن يمد حدودها إلى المحيط الأطلنطي ، وجبال البرانس ، والبحر المتوسط ، وجبال الألب ، ونهر الرين . ولم يختر أعوانه ومستشاريه من كبار رجال الدين والأشراف الذين ظلوا يخدمون ملوك فرنسا طوال الأربعة القرون الماضية ، بل اختارهم من طبقة المحامين الذين أقبلوا عليه وعقولهم مفعمة بالأفكار الاستعمارية التي أوحى إليهم بها القانون الروماني . فكان بيير فلت Pierre Flotte وجيوم ده نوجاريه Guillaume de Nogaret من ذوى العقول النابهة الذين لا يبالون بالمبادئ الأخلاقية أو السوابق ، وشاد فليب بفضل توجيههم صرح القانون الفرنسي ، وأحلّ الشريعة الملكية محل

الشريعة الإقطاعية ، وانتصر على أعدائه بسياسته الحصيفة ، وحطم في نهاية الأمر سلطان البابوية ، وجعل البايا في الواقع مهيماً في فرنسا . وحاول أن يفصل جوين Quienne عن إنجلترا ، ولكنه وجد إدورد الأول قوياً لا يُغلب ، وحصل على شمبانيا Champagne ، وبرى Brie ، ونبرة بطريق الزواج ، وابتاع بالمال شارتر ، وفرانش كتيه Franch - Comté ، وإقليم ليون وجزءاً من اللورين .

وكان دائم الحاجة إلى المال ، ولهذا وجه نصف ذكائه ونصف وقته إلى اختراع الضرائب وجمع الأموال ، واستبدل المال بالقروض الإقطاعية الواجب أدائها للتاج ؛ وكم من مرة خفض قيمة النقد ، وأصر على أن تؤدى الضرائب سبائك أو بالنقد الصحيح القيمة ، وبني اليهود واللمبارد وقضى على فرسان المعبد ليمسواهم ، وحرّم إصدار المعادن النفيسة من بلاده ، وفرض رسوماً باهظة على الصادرات والواردات ، والمبيعات ، وضريبة حرية مقدارها بنس على كل جنيه فرنسي في ثروة الأفراد في فرنسا . ثم فرض أخيراً ضريبة على الكنيسة دون أن يستشير البابا ، وكانت الكنيسة وقتئذ تمتلك ربع أرض فرنسا . وسرّوى قصة هذا الصراع عند الكلام على بنيفاس الثامن . ولما مات البابا الطاعن في السن بعد أن حطمه الكفاح ، استخدم فيليب ماله وأعوانه في اختيار رجل فرنسي لقب كلمنت الخامس في مكانه ، كما استطاع أن ينقل مقر البابا إلى أفنيون ، وهكذا انتصر فيليب على البابوية انتصاراً لم يظفر به من قبل على الكنيسة رجل من غير أهلها ، وأصبح رجال القانون في فرنسا من هذا الوقت هم الذين يحكمون رجال الدين .

وتنبأ الرئيس الأكبر لفرسان المعبد وهو سائر إلى الخشبة التي يشد عليها من يراد إحراقهم بأن فيليب سيتبعه في خلال عام واحد . وقد صدقت النبوءة ، ولم يمت فيليب وحده في عام ١٣١٤ بل مات فيها كلمنت أيضاً - ولم يكن الملك

المتنصر قد تجاوز وقتئذ السادسة والأربعين من عمره . وكان الشعب الفرنسى . يعجب بشجاعته وصلابة رأيه . وأيده في صراعه مع بنيفاس ، ولكنه يصب اللعنات على ذكراه ويراه أشد الملوك استبداداً في تاريخه كله . وكادت انتصاراته تحطم كيان فرنسا . وقد كان تخفيضه قيمة النقد سبباً في اضطراب الاقتصاد القومى . وكانت الأجور العالية للأراضى الزراعية والأثمان المرتفعة سبباً في فقر الشعب ، وأضرت الضرائب الفادحة بالصناعة ، كما كان نفى اليهود واللمبارد سبباً في شل حركة التجارة وفي خراب الأسواق وتعطيل المواسم التجارية . وجملة القول أن الرخاء الذى ازداد في عهد القديس لويس قد نقص واضمحل في عهد فليب الذى يتقن جميع ما في القانون والسياسة من الأعياب (٨٣) .

وجلس على العرش ثلاثة أبناء لفليب وواراهم الثرى في خلال الأربعة عشر عاماً التى أعقبت وفاته ، ولم ينجب واحد منهم أبناء يرثون ملكه ، بل ترك شارل الرابع (المتوفى عام ١٣٢٨) بنات ، اتخذ القانون السالى القديم ذريعة لحرمانهم من التاج . وكان أقرب وريث من الذكور للأسرة المالكة هو فليب الفالوازى Philip of Valois ابن أخى فليب الجميل ، فلما تولى الملك انتهت بموته الأسرة المالكة التى تناسلت من الملوك الكايبتيين مباشرة وبدأ عهد أسرة فالتوا .

وإذا ألقينا نظرة عامة عاجلة على أحوال فرنسا في ذلك الوقت رأينا أنها تقدمت تقدماً عجبياً في النواحي الاقتصادية، والتشريعية ، والتعليمية ، والأدبية، والفنية . فقد كان نظام رقيق الأرض يخفى من البلاد بخطى سريعة ، لأن نمو الصناعات في المدن كان يغرى الناس بالزروع إليها من المزارع ، حتى بلغ سكان باريس مائتى ألف في عام ١٣١٤ ، وبلغ سكان فرنسا ٢٢,٠٠٠,٠٠٠ (٨٤) ، ولما قدم بروتولانينى إلى فرنسا فارأمن الاضطهاد السياسى في فلورنس دهش له كان يسود شوارع باريس في عهد لويس التاسع من أمن وطمأنينة ، وما كان في

المدن من تجارة وصناعة ، وما كان في الريف الجميل المحيط بالعاصمة من حقول وكروم مثمرة (٨٥) .

وأوشكت الطبقتان الناشئتان ، طبقتا الموظفين ورجال الأعمال ، أن تضارعا في الثراء طبقة رجال الأعمال ، فاضطرت الدولة إلى تمثيل هاتين الطبقتين في مجلس الطبقات Etats Generaux الذى دعاه فليب الرابع إلى الانعقاد في باريس عام ١٣٠٢ ليقدم له المعونة الأدبية والمالية في نزاعه مع بنيفاس . ولم تكن هذه المجالس العامة التى تمثل فيها الطبقات - الأعيان ، ورجال الدين ، والعامة - لم تكن هذه المجالس تدعى إلى الانعقاد إلا في الضرورات القصوى (١٣٠٢ ، ١٣٠٨ ، ١٣١٤ . . .) وكان المحامون الذين يخدمون الملك بوصفهم مجلسا للدولة Conseil d'etat يوجهونها توجيهاً ماهراً نحو الهدف الذى يريدونه . أما برلمان باريس الذى اتخذ شكله المعروف به في عهد لويس التاسع فلم يكن جمعية نيابية ، بل كان هيئة مؤلفة من أربعة وتسعين من المحامين ورجال الدين يعينهم الملك ويجتمع مرة أو مرتين في العام ليكون محكمة عليا . وقد نشأت من أحكامه مجموعه من التشريعات القومية تعتمد على القانون الرومانى لاعلى شرائع الفرنجة ، وتهب الملكية المعونة الكاملة المستمدة من التقاليد القانونية القديمة ٥

وقد بقيت الفورة العقلية التى سادت عهد فليب الرابع محفوظة لأهل هذا الجيل في الرسائل السياسية التى كتبها أحد أنصاره - بيير دوبوا Pierre Dubois (١٢٥٥ - ١٣١٢) ، وهو محام مثل كوتانس Coutances في مجلس الطبقات الذى عقد في عام ١٣٠٢ . فقد عرض دوبوا في رسالتين من رسائله « ملتمس مضمم من شعب فرنسا إلى الملك ضد البابا بنيفاس Supplication de peuple de France Contre le pape Boniface » وفي نبذة عن

« استرداد الأرض المفقودة » (١٣٠٦) آراء تكشف لنا عن الثغرة الواسعة التي كانت تفصل في ذلك الوقت عقلية رجال القانون عن عقلية رجال الكنيسة في فرنسا . من ذلك ما قاله دوباوا من أن الكنيسة يجب ألا تجلس عليها الأموال ، وأن تجرى عليها من الآن معونة مالية من الدولة ؛ ويجب أن تفصل الكنيسة الفرنسية عن رومة ؛ وأن تجرد البابوية من جميع السلطات الزمنية ، وأن تكون الدولة صاحبة السطة العليا . وقال أيضاً إن فليب يجب أن يعين إمبراطوراً لدولة أوروبا الموحدة ، وأن تكون القسطنطينية عاصمته ؛ وأن تؤلف محكمة دولية لتفصل فيما يشجر بين الأمم من نزاع ، وأن تعلن المقاطعة الاقتصادية على أية أمة مسيحية تحارب أمة مسيحية أخرى ؛ وأن تنشأ في رومة مدرسة للدراسات الشرقية ؛ وأن يتاح للنساء جميع ما يتاح للرجال من فرص تعليمية ، وأن يتساووا مع الرجال في جميع الحقوق السياسية (٨٦) .

وكان هذا العصر عصر شعراء الفروسية الذين يتغنون بالحرب العذرى في بروفانس ؛ وعصر قصاصي الملاحم في شمالي فرنسا ، وعصر أغنية رولان Chanson de Roland ، وغيرها من الأغاني الرمزية : وأغنية أوكسان ونيقولا Aucassin et Nicolette ، وقصة الوردة Roman de la Rose ، والعصر الذي ظهر فيه المؤرخان اللذان يعدان طليعتي المؤرخين الفرنسيين البارزين وهما فلاردوين Villardhouin وچوانثيل . ونظمت في هذا العهد الجامعات الكبرى في باريس وأورليان ، وأنجير Angers ، وطولوز (طلوشة) ، ومنبلييه . بدأ هذا العصر بروسلان Roscelin وأبلار Abélare وانتهى بأعلى ما وصلت إليه الفلسفة المدرسية Scholastic Philosophy . وكان عصر النهضة القوطية - التي ظهرت في الكنائس الفخمة الكبرى في سان دنيس ، وتشارتر ، ونوتردام ، وأميين ،

وريمس ، وفي النحت القوطى فى أكمل مظاهره الروحية . وكان الفرنسيون وقتئذ يفخرون فخراً لائولومهم عليه بوطنهم ، وعاصمتهم ، وثقافتهم ؛ وكانت وطنية قومية تعمل لوحدة البلاد تحل تدريجياً محل النعرة الإقليمية التى كانت تسود عصر الإقطاع ؛ وأخذ الناس ذلك الحين يتحدثون حديث الحب والإعزاز عن « فرنسا الحلوة » ، كما نرى ذلك فى أغنية رولان . وملاك القول أن الحضارة المسيحية قد بلغت عظمتها فى فرنسا وإيطاليا .

الفصل الثاني عشر

أسبانيا : ١٠٩٦ - ١٢٨٥

سار المسيحيون في فتح أسبانيا بالسرعة التي أمكنتهم منها القوضى الناشئة من تطاحن الملوك الأسبان ، ومنح البابوات من عاونوا على إخراج المسلمين من أسبانيا لقب المحاربين الصليبيين وامتيازاتهم ؛ وأقبل بعض فرسان المعبد من فرنسا للانضمام إلى أهل البلاد المسيحيين ؛ وتكونت في القرن الثاني عشر ثلاث جماعات دينية حربية - فرسان كلاترافا Calarrava ، وفرسان ستياجو ، وفرسان القنطرة ؛ واستولى ألفنسو الأول (الأذفنش) في عام ١١١٨ ملك أرغونة على مدينة سرقسطة ؛ وفي عام ١١٩٥ هزم المسيحيون ، ولكنهم كادوا يبيدون جيش الموحدين الأكبر في واقعة العقاب Las Navkas de Tolosa في عام ١٢١٢ . وكان نصرهم في هذه الواقعة نصراً حاسماً ، تحطمت على أثره مقاومة المسلمين وسقطت قلاعهم واحدة بعد واحدة في أيدي المسيحيين : قرطبة (١٢٣٦) ، وبلنسية (١٢٣٨) ، وإشبيلية (١٢٤٨) ، وقادس (١٢٥٠) ، ثم وقف فتح المسيحيين نحو قرنين ليفسح الوقت إلى حروب الملوك .

ولما هزم ألفنسو (الأذفنش) الثامن ملك قشتالة هجم على مملكته ملكا ليون ونبرة وكانا قد وعداه من قبل بأن يخفيا لمساعدته ، واضطر ألفنسو إلى عقد الصلح مع المسلمين ليحتمي نفسه من غدر المسيحيين^(٨٧) . وأعاد فرنندو الثالث Fernando III (١٢١٧ - ١٢٥٢) توحيد ليون Leon وقشتالة ، ووسع حدود المملكة الكاثوليكية إلى غرناطة ، واتخذ إشبيلية عاصمة للملكة ، وحول مسجدها العظيم إلى كنيسة ، واتخذ القصر Alcazar مسكناً له ، وكانت الكنيسة تعدّه وقت مولده ابناً غير شرعي ، ولكنه عدّه قدساً بعد

وفاته . وكان ابنه ألفونسو (الأذفنش) العاشر (١٢٥٢ - ١٢٨٤) عالماً ممتازاً ، ضعيف العزيمة ؛ وأعجب الأذفنش الحكيم (el Sabio) بما وجدته في إشبيلية من علوم المسلمين ، فتحدى المتعصبين من أهل ملته باستخدام العلماء من العرب واليهود والمسيحيين على السواء لترجمة كتب المسلمين إلى اللغة اللاتينية كي تستطيع أوروبا أن تفيد من هذه العلوم . وقد أنشأ هذا الملك مدرسة لعلم الهيئة هي صاحبة « الأزياج الأذفنشية » الخاصة بالأجرام السماوية وحركاتها التي أوضحت المرجع الذي يعتمد عليه علماء الهيئة المسيحيون . ونظم هذا الملك هيئة من المؤرخين ، وضعت كتاباً سمته باسمه جمعت فيه تاريخ أسبانيا ، وتاريخاً عاماً واسعاً للعالم كله ، ونظم نحو ٤٥٠ قصيدة ، بعضها بلغة قشتالة ، وبعضها باللغة الجليقية - البرتغالية ؛ ولحن الكثير منها ، ولا تزال هذه القصائد باقية حتى اليوم ، أثراً خالداً لأغنا العصور الوسطى . وفاضت استه الأدبية في عدة كتب ألّفها هو أو أمر بتأليفها ، في ألعاب الداما ، والشطرنج ، والنرد ، والموسيقى ، والملاحة ، والكيمياء ، والفلسفة . ولعله أيضاً قد أمر بترجمة الكتاب المقدس من اللغة العبرية إلى القشتالية مباشرة . وقد رفع اللغة القشتالية إلى المرتبة العليا التي أمكنها من أن تسيطر من ذلك الوقت إلى يومنا هذا على الحياة الأدبية في أسبانيا ؛ ولقد كان هو في واقع الأمر منسج الألب الإسباني والبرتغالي ، وعلم التاريخ الإسباني ، والمصطلحات العلمية الإسبانية . ولكنه لوّث تاريخه الوضاء بما حاكمه من الدسائس للاستيلاء على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأنفق في هذه المحاولة كثيراً من أموال أسبانيا ، وعمل على ملء خزائنه بزيادة الضرائب وتخفيض قيمة النقد ، ثم خلع ورُفِع ابنه إلى العرش ، وعاش بعد سقوطه عامين ، ثم مات محطماً كسير القلب .

وارتفع شأن أرغونة بزواج ملكتها پترونلا Petronella من الكونت رامون برنجر Ramon Barenger صاحب برشلونة (١١٣٧)؛ وحصلت أرغونة

بفضل هذا الزواج على قطلونية المشتعلة على أعظم الثغور الأسبانية . وعم
لرخاء هذه المملكة الجديدة على يد بيدرو الثاني (Pedro II) (١١٩٦ -
١٢١٣) ، بتأمين الموانئ ، والأسواق ، والطرق ، وبصرامته في تنفيذ
القانون على من يعيث بهذه المرافق ، وجعل بلاطه في برشلونة مركز القروسية
والأسبانية والشعراء الغزليين ، وزاد من بهجته أن كان ملتحقاً المحبين ،
ثم تقرب إلى الله - وضمن لنفسه لقبه - بأن قدم أرغونة إلى إنوسنت
الثالث على أن يأخذها منه إقطاعية . وكان ابنه جيم Jaime أوجيمس James
الأول (١٢١٣ - ١٢٧٦) في الخامسة من عمره حين قتل بيدرو في ميدان
القتال ؛ واغتم أشرف أرغونة هذه الفرصة السانحة ليستعيدوا استقلالهم
الإقطاعي ؛ ولكن جيمس تولى زمام الأمور وهو في العاشرة ، وسرعان
ما أخضع الأشراف لسلطان الملك . وكان لا يزال شاباً في سن العشرين
حين استولى على جزائر البليار ذات الموقع الحربي المنيح من المسلمين
(١٢٢٩ - ١٢٣٥) ، واسترد منهم بالنسبة وألبقناط . وقام في عام ١٢٦٥
بحركة من محركات القروسية التي هيأتها له الوحدة الأسبانية ، فاستولى على
مرسية من المسلمين وأهداها إلى ملك قشتالة . وكان أكثر حكمة من
الفتوسو الحكيم ، حتى أصبح بفضل هذه الحكمة أقوى ملوك أسبانيا في ذلك
القرن ، لا يقل في ذلك عن فرديريك الثاني ولويس التاسع ، فقد كان يشبه
أولها في ذكائه ودهائه ، وبسالته المجردة من الضمير . لكن تحلله من قيود
الأخلاق . وكثرة طلاقه نساءه ، وحروبه العوان ، وما كان يلجأ إليه
من الأعمال الوحشية في بعض الأحيان تجعل الفرق بينه وبين القديس لويس
كبيراً من هذه الناحية .

وقد دبر المؤامرات للاستيلاء على الجزء الجنوبي الغربي من فرنسا ، ولكن
لويس استطاع أن يتغلب عليه بقوة صبره وإن كان قد نزل له عن منبليه .
ودبر في أخريات أيامه مؤامرة أخرى للاستيلاء على صقلية ليتخذها قاعدة
حربية ، ومركزاً تجارياً ، وليجعل البحر المتوسط الغربي بحيرة أسبانية . ولكن هذا

الحلم لم يتحقق إلا في عهد ولده . ذلك أن بيدرو الثالث (١٢٧٦ - ١٢٨٥) ، تزوج ابنة مانفرد ملك صقلية ابن فردريك ، وظن أن هذه الجزيرة من حقه هو حين استولى عليها شارل كونت أنجو ؛ وبارك البابا استيلاءه عليها ، فما كان من بيدرو إلا أن ألغى سيادة البابا على أرغونة ، وارتضى الحرمان البابوي ، وركب البحر إلى صقلية .

وشهدت هذه الفترة في أسبانيا ما شهدته في إنجلترا وفرنسا من قيام الإقطاع واضمحلاله . بدأه الأشراف بأن تجاهلوا أو كادوا يتجاهلون السلطة المركزية ، فقد كانوا هم ورجال الدين معينين من الضرائب التي كان عبثها الباهظ واقعاً على عاتق المدن والتجارة ، ثم انتهوا بأن خضعوا للملوك المسلحين بجيوشهم هم ، تؤيدهم موارد المدن وحاجياتها ، ويعلى من مكانتهم إحياءهم القانوني الروماني ، الذي كان يفترض أن الحكم الملكي المطلق من بدائه نظام الحكم . ولم يكن ثمة قانون أسباني في بداية تلك الفترة ، بل كانت هناك قوانين متفرقة لكل دولة من دول أسبانيا ، ولكل طبقة من طبقات كل دولة . ثم شرع فردريك الثالث يضع نظاماً جديداً لقانون قشتالة ، وأتم ألفونسو العاشر هذا النظام الذي عرف باسم قانون السبعة الأقسام (Siete Partidas) لأنه كان مقسماً سبعة أقسام (١٢٦٠ - ١٢٦٥) ، وهو من أتم القوانين وأعظمها شأناً في تاريخ التشريع . وقد أسس قانون السبعة الأقسام على قوانين القوط الغربيين الأسبان ولكنه عدل لكي يتفق مع قوانين جستنيان ، وكان أرقى من العصر الذي وُضع فيه ، ولهذا ظل مهملاً إلى حد كبير ؛ ولكنه أصبح في عام ١٣٣٨ قانون قشتالة النافذ ، ثم صار في عام ١٤٩٢ قانون أسبانيا كلها . ثم أدخل جيمس الأول قانوناً مثله في أرغونة ، فقد نشرت أرغونة في عام ١٢٨٣ قانوناً تجارياً وبحرياً نافذاً ، وأقامت في بلنسية ثم في برشلونة وميورقة بعدئذ محاكم تدعى محاكم «قنصلية البحر» .

وتزعمت أسبانيا بلاد العالم في العصور الوسطى في إقامة المدن الحرة والأنظمة

النيابية . ذلك أن الملوك أرادوا أن يحصلوا على تأييد المدن في صراعهم مع الأشراف ، فنحوا كثيراً من البلدان عهداً بالحكم الذاتي . وأصبح استقلال المدن بشؤونها شهوة جامحة في أسبانيا كلها ، فأخذت البلدان الصغرى تطالب بتحررها من البلدان الكبرى أو من الأشراف أو الكنيسة ، أو الملك ؛ فلما أفلحت في نيل هذه الحرية أقامت مشانقها في السوق العامة رمزاً لحريتها . وكان يحكم برشلونة في عام ١٢٥٨ مجلس مؤلف من مائتي عضو ، تمثل كـ تمهم الغالة شئون الصناعة والتجارة (٨٨) . وبلغت سيادة المدن زمناً ما حد الاستقلال ، وأخذت تشن الحرب على المسلمين أو بعضها على بعض ؛ ولكنها بالإضافة إلى هذا الاستقلال ألقت من نفسها أخوة hermandades لتعاون على العمل أو للمحافظة على أمنها وسلامتها . ولما أن حاول الأشراف في عام ١٢٩٥ أن يخضعوا حكومات المدن المحلية ألقت ثلاث وأربعون مدينة « أخوة قشتالة » ، وتعهدت كلها بالاشتراك في الدفاع عن استقلالها ، وأنشأت لها جيشاً مشتركاً . ولما أن هزمت هذه « الأخوة » الأشراف ، فرضت رقابتها على موظفي الملك وكبحت جماهم ، وسنت قوانين تراعيها المدن المنضمة إلى هذا الحلف التي بلغ عددها مائة مدينة في بعض الأحيان .

ولقد جرت عادة الملوك الأسبان من زمن بعيد أن يعقلوا من حين إلى حين جمعية من الأشراف ورجال الدين ؛ وأطلق اسم كورتز Cortes أى المحاكم لأول مرة على إحدى هذه الجمعيات التي عقدت في عام ١١٣٧ . وضم كورتز ليون الذي اجتمع في عام ١١٨٨ بعض رجال الأعمال يمثلون المدن . وأكبر الظن أن هذا هو أقدم مثل من أمثلة النظم النيابية السياسية في أوروبا المسيحية . ووعده الملك في هذا المجلس التاريخي ألا يعلن الحرب أو يعقد الصلح ، أو يصدر قراراً إلا بعد موافقة الكورتز (٨٩) . واجتمع في قشتالة أول مجلس من هذا النوع مؤلف من الأعيان ، ورجال الدين ، ورجال المال من الطبقة الوسطى في عام ١٢٥٠

أى قبل اجتماع « برلمان » إدورد الأول « النموذجى » بخمس وأربعين سنة . ولم يكن الكورتز هو الذى يضع القوانين بنفسه ، ولكنه كان يصوغ « الملتزمات » ويعرضها على الملك ، وكثيراً ما كان لهذا المجلس سلطان على المال يحمل الملك على أن يوافق على هذه « الملتزمات » . وأصدر كورتز قطلونية فى عام ١٢٨٣ قراراً صادق عليه ملك أرغونة بالألا يصدر بعد ذلك الوقت أى تشريع قومى بغير رضاء المواطنين (cives) ، ثم صدر قرار آخر يطلب إلى الملك أن يدعو الكورتز إلى الاجتماع كل عام ، وسبقت هذين القرارين مثلهما من القرارات التى أصدرها البرلمان الإنجليزى (١٣١١ ، ١٣٢٢) بأكثر من ربع قرن من الزمان . هذا إلى أن الكورتز عين أعضاء يختارهم من كل طبقة من الطبقات الاجتماعية يؤلفون چنتا (Junta) أى اتحاداً ليشرف فى أثناء الفترات التى تقع بين أدوار انعقاد الكورتز على تنفيذ القوانين وإنفاق الأموال التى وافق عليها^(٩٠) .

وكان من العوامل التى عقدت مشكلة الحكم فى أسبانيا قيام الجبال التى قسمتها أقساماً منفصلة ، وعرقلت تنفيذ قانون عام موحد فى جميع ربوعها . يضاف إلى هذا أن عدم استواء أرضها ، وجفاف هضبتها ، وما كان يحل بها من الدمار حيناً بعد حين بسبب الحروب ، كل هذا قد عطل الزراعة ، وجعل أسبانيا فى معظم أجزائها مراعى للماشية والضأن ؛ وكانت قطعان الضأن الجميلة الصوف تغذى آلاف الأنوال فى البلدان ؛ ولقد حافظت أسبانيا على شهرتها العالمية القديمة بجمال أصوافها . وكانت التجارة الداخلية تقف فى سبيلها صعب النقل ، واختلاف الموازين والمقاييس والنقد ، غير أن التجارة الخارجية تمت فى موانئ برشلونة ، وطرقونة ، وبلنسية ، وإشبيلية ، وقادس ؛ وكان تجار قطلونية يجوبون جميع الأقطار ؛ وكان لتجار قشتالة فى عام ١٢٨٢ مركز فى بروج لا يضارعه إلا مركز للعصبة الهانسية^(٩١) . وأصبح التجار والصناع أعظم من يمدون التاج بالمعونة

المالية ، ونظم صعاليك المدن لهم نقابات طوائف Gremios ، ولكن الملوك كانوا يسيطرون سيطرة قوية على هذه النقابات ، وكانت الطبقات العامة تعاني مساوئ الاستغلال الاقتصادي دون أن تستمتع بحق التمثيل النيابي السياسى .

وكانت كثرة الصناعات إما من اليهود أو المسلمين المقيمين فى أسبانيا المسيحية . فأما اليهود فقد أثروا فى أرغونة ، وقشتالة ؛ وأسهموا بحظ موفور فى حياة المملكتين العقلية ؛ وكان عدد كبير منهم تجاراً أغنياء ، ولكن قيوداً متزايدة فى شدتها فرضت عليهم فى نهاية هذه الفترة . وأما المسلمون المقيمون فى أسبانيا المسيحية فقد ترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وقسط كبير من الاستقلال بحكم أنفسهم ؛ وكان منهم أيضاً تجار أغنياء ، ودخل عدد قليل منهم فى بلاط الملوك ، كما كان لأرباب الحرف منهم أثر قوى فى العمارة الأسبانية ، وأعمال النجارة الدقيقة ، وأشغال المعادن ، ونتج من أثرهم هذا طراز أسباني إسلامى أدى إلى استخدام الموضوعات والأشكال الإسلامية فى الفن المسيحى . وقد سُمى ألفونسو السادس نفسه فى إحدى نشواته الدينية « إمبراطور العقيدتين Emperador de los Dos Cultos^(١٢) . ولكن المسلمين فى أسبانيا المسيحية كانوا يرغمون فى العادة على لبس زى خاص ، وعلى أن تكون منازلهم فى كل مدينة فى حى منعزل عن سائر أحيائها ، وكانت تفرض عليهم ضريبة فادحة أكثر مما تفرض على غيرهم ؛ وأخيراً أشعلت الثروة التى جمعوها بفضل مهارتهم فى الأعمال الصناعية والتجارية نار الحسد فى قلوب الأغلبية المسيحية ؛ فأصدر جيمس الأول عام ١٢٤٧ أمراً بطردهم من أرغونة ، فغادرها أكثر من مائة ألف يحملون معهم حذقهم الفنى ، وتدهورت الصناعة فى أرغونة من ذلك الحين .

وبعث امتزاج الحضارة الأسبانية بجزء غير قليل من الثقافة الإسلامية ، والقوة الناشئة من الانتصار على عدو قديم ، وتقدم الصناعة وازدياد الثروة ، وارتقاء العادات والأذواق ، بعث هذا كله فى الحياة العقلية بأسبانيا نشاطاً عظيماً ؛

فشهد القرن الثالث عشر نشأة ست جامعات : أسبانيا ، وكان ألفونسو الثاني ملك أرغونة (١١٦٢ - ١١٩٦) أول الشعراء الغزلين الأسبان ، وسرعان ما أصبح هؤلاء الشعراء يعدون بالآلاف ؛ ولم يكن هؤلاء يقرضون الشعر فحسب ، بل صاغوا من احتفالات الكنيسة مسرحيات زمنية ، ومهدوا بذلك السبيل إلى روائع لوبي ده فيجا ' Lope de Vega وكلدرون Calderon . وكان من روائع ذلك العصر أيضاً ملحمة السيد Cid ملحمة أسبانيا القومية . وكان خيراً من هذا كله فنون الموسيقى ، والغناء ، والرقص التي كانت تفيض من قلوب الشعب في المنازل والشوارع ، والتي كانت مصدر العظمة والفخامة في قصور الملوك . وكانت أول مصارعة للثيران على الطراز الحديث سجلت في تاريخ أسبانيا هي المصارعة التي أقيمت في أيلبا عام ١١٠٧ في حفلة عرش ؛ وقبل أن يجل عام ١٣٠٠ كانت تلك المصارعة من الألعاب العامة في المدن الأسبانية . وجاء الفرسان الفرنسيون الذين أقبلوا على أسبانيا ليساعدوا أهلها في حروبهم مع المسلمين ، جاءوا معهم في الوقت عينه بمبادئ الفروسية واحتفالاتها ، فأصبح احترام النساء ، أو احترام ملكية الرجل دون غيره لامرأة بعينها من مسائل الشرف لا تقل في هذا عن افتخار الرجل بشجاعته أو استقامته ، وأضحت المبارزة للاحتفاظ بالشرف عاملاً أساسياً في الحياة الأسبانية . وكان امتزاج الدم الأوربي بالدم الأفريقي والسلمى ، والثقافة الغربية بالثقافة الشرقية ، والأساليب السورية والفارسية بأصول الفن القوطي ، والحشونة الرومانية بالعواطف الشرقية ؛ كان هذا الامتزاج هو الذي تولد منه الخلق الأسباني ، والذي جعل الحضارة الأسبانية في القرن الثالث عشر حصرأ فذاً بارزاً في موكب الحياة الأوربية .

الفصل الثالث عشر

البرتغال ١٠٩٥

سُرَّ ألفنسو السادس ملك قشتالة وليون في عام ١٠٩٥ من الكونت هنري البرغندي أحد الفرسان الصليبيين الأسبان سروراً جعله يزوجه بابنته تريزا ، وأن يجعل من بائنتها مقاطعة من مقاطعات ليون تدعى البرتغال (*) أعطاه إياها إمارة إقطاعية . ولم يكن هذا الإقليم قد استرد من المسلمين إلا قبل ذلك الوقت بإحدى وثلاثين سنة ، وكان المسلمون لا يزالون يحكمون جزأه الواقع جنوب نهر منديجو Mondego . وساء الكونت هنري أن يكون أقل من ملك ، فأخذ هو وزوجته منذ قرانهما يأتمران ليجعلا من إقطاعياتهما دولة مستقلة ؛ ولما مات هنري (١١١٢) واصلت تريزا سعيها لنيل الاستقلال ، وعلمت أعيان بلادها وأتباعها أن يفكروا على الدوام في حريتهم القومية ، وشجعت مدنها على أن تحصن نفسها وتدرس فنون الحرب وأساليبها ، وقادت بنفسها جنودها في حرب إثر حرب ؛ وكانت في فترات السلم تحيط نفسها بالموسيقين ، والشعراء ، والعشاق (٩٣) . وهُزمت ، وأُسرَت ، ثم أُطلق سراحها ، وأعيدت إلى إقطاعياتها ؛ وأنفقت المال جزافاً في حب محرم ، وخُلعت عن عرشها ، ونُفيت مع حبيبا ، وماتت فقيرة معذمة (١١٣٠) .

وكان إلهامها واستعدادها هما اللذين أمكنا ولدها ألفنسو الأول هنريك Aifnso Henriques (١١٢٨ - ١١٨٥) أن يحقق أغراضه : ذلك أن ألفنسو السابع صاحب قشتالة وعده بأن يعترف به حاكماً مستقلاً تام السيادة على جميع البلاد التي ينتزعها من المسلمين جنوبي نهر الدوو . فهاجم هنري المسلمين

(*) هذا الاسم مشتق من تفرها المسمى پورتس كال Portus Cale عند الرومان والمسمى اليوم أپرتو Oporto (الثغر) .

بكل ما ورثه عن أبيه من شجاعة وتهور ، وعن أمه من روح عالية وصلابة ، وهزمهم في أوتريك Outrique (١١٣٩) ، وتادى بنفسه ملكا على البرتغال . وأقنع رجال الدين الملكين بأن يعرضوا الأمر على البابا إنوسنت الثالث ، فكان حكمه لصالح قشتالة ، فما كان من أفنسو هنريك إلا أن نقض هذا الحكم بأن عرض مملكته الجديدة على البابا إقطاعياً له . وقبل إسكندر الثالث هذا العرض واتفق به ملكاً على البرتغال (١١٤٣) على شريطة أن يؤدي جزية سنوية إلى كرسي رومة (٩٤) . وواصل أفنسو هنريك حروبه مع المسلمين ، واستولى على ستريمة Santarem ولشبونة ، ومد رقعة مملكته إلى نهر التاجه Tagus . ووصلت البرتغال في عهد أفنسو الثالث (١٢٤٨ - ١٢٧٩) إلى حدودها الأرضية التي لها في الوقت الحاضر ، وأصبحت لشبونة ثغرها وعاصمتها لموقعها الحربي على مصب نهر التاجه (١٢٦٣) . وتقول إحدى الأساطير القديمة إن يولسيز - أوديسيوس Ulysses - Odysseus ، هو الذي أنشأ المدينة وسماها باسمها القديم يولسبو Ulissipo الذي حرفه الناس فيما بعد بإهمالهم فكان أولسبو Olisipo أو لشبونة Lisbon .

ونعصت سني أفنسو الثاني الأخيرة الحرب الأهلية التي شبت نارها بينه وبين ابنه دنيز Dinliz الذي كان يأخذه العجب من أن والده قد طال عمره أكثر مما يجب . وانتقل دنيز من هذه البداية المريبة إلى حكم صالح طويل (١٢٧٩ - ١٣٢٥) عقد فيه الصلح بين ليون وقشتالة بجلف بينهما سببه الزواج ، وامتنع النزاع بينه وبين وارث آخر للعرش بفضل توسط إزبل Isabel ، زوجة دنيز الصالحة ، وترك دنيز مجد الحروب ووجهه جهوده إلى إصلاح حال بلاده من الناحيتين الثقافية والاقتصادية ، فأنشأ مدارس زراعية وعلم الأهلين طرقاً للزراعة خيراً من الطرق التي كانوا يجرون عليها ، وغرس الأشجار لتمنع تعرية التربة ، وشجع التجارة ، وأنشأ السفن والمدن ، ونظم للبرتغال أسطولاً حربياً ، وعقد

معاهدة تجارية مع إنجلترا ، فاستحق بذلك اللقب الذى أطلقه عليه شعبه حباً فيه وهو Re Lavrador أى الملك العامل . والحق أنه كان إدارياً مجداً ، وقاضياً عادلاً ، يعين الشعراء والعلماء ، وقد كتب هو أحسن ما كتب من الشعر فى زمنه وبلاده ، وبفضله ارتقت اللغة البرتغالية ، فلم تعد كما كانت من قبل لهجة جايقية بل أصبحت لغة أدبية ؛ وقد صاغ فى أغانيه الرعوية pastorellas أغاني شعبه صياغة أدبية ، وشجع الشعراء الغزلين فى بلاطه على أن يتغنوا بمباهج الحب وآلامه . وكان دنيز نفسه علماً بأحوال النساء ، وكان يفضل أبناءه غير الشرعيين على ابنه الشرعى الوحيد . ولما أن خرج هذا الابن على أبيه ؛ وحشد جيشاً ليخلع به أباه عن عرشه ، ركبت إزبل ، وكانت تعيش بعيدة عن مرح بلاط الملك ومباهجه ، ووقفت بين القوتين المتحاربتين ، وعرضت أن تكون أولى ضحايا نزاعهما، وعنقهما . فاستحى زوجها وابنها من فعلهما وامتنعا عن القتال (١٣٢٣) .